لُبَابُ
الآدَابِ المَعْنَوِيَّةِ لِلصَّلَاةِ
لِلإِمَامِ الخُمَيْنِيِّ قدس سره

بسم الله الرحمن الرحيم

- لُباب الآداب المعنوية للصلاة للإمام الخميني قدس سره
- إعداد: الدكتور إياد الأرناؤوطي/ جامعة بغداد
- الناشر: دار الولاية للثقافة والإعلام
  مركز التبليغ الإسلامي
- الإخراج الفني: علي الهاشمي

لُبَابُ
الآدَابِ المَعْنَوِيَّةِ لِلصَّلَاةِ
لِلإِمَامِ الخُمَيْنِيِّ قُدِّسَ سِرُّهُ

د. إِيَاد مُحَمَّد عَلِيّ الأَرْنَاؤُوطِيّ

جَامِعَة بَغْدَاد

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

www.alwelayah.net
alwelayah@alwelayah.net
+٩٨- ٢٥ -٣٧٧٣٨٣٧١
+٩٨٩٣٠٩٢٦٩٠٤٨

www.facebook.com/tableegh
twitter.com/tableegh
m.t.i.114@hotmail.com
+٩٨-٩٣٦٤٦٧٧٥٦٣

قال الإمام الخميني قدس سره:

«إنّ للصلاة غير هذه الصورة لمعنى، ولها دون هذا الظاهر لباطنًا. وكما أن لظاهرها آدابًا، يؤدّي عدم رعايتها إلى بطلان الصلاة الصوريّة، أو نقصانها، فإنّ لباطنها آدابًا قلبيّة، يلزم من عدم رعايتها بطلان، أو نقص، في الصلاة المعنويّة»

الآداب المعنوية للصلاة: ص ١٩

المقدّمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي قصرت الألسن عن بلوغ ثنائه كما يليق بجلاله، وعجزت العقول عن إدراك كنه جماله، وانحسرت الأبصار دون النظر إلى سبحات وجهه، ولم يجعل للخلق طريقا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته.

وصلّى الله على رسوله الكريم، محمّد، سيّد العالمين، وصفوتهم، وتاج النّبيّين وغرّتهم، وعلى آله الطّيّبين الطّاهرين، أعلام الهدى، وبيارق التّقى، أولياء الله في بريّته، وبقيّة رسوله في أمّته.

أمّا بعد:

فكتاب «الآداب المعنوية للصلاة» للإمام الخميني قدس سره كتاب عرفاني، عميق الغور، أنيق الأسلوب، خطّه جهبذ من جهابذة العلم، ومعلم من معالم العرفان، يكفي اسمه تعريفا به.

ولاختصار الكتاب، وتقريبه أكثر، ولا سيّما من أذهان غير المتخصّصين، ونحن نعيش في زمن تعقّدت فيه مظاهر الحياة، وتشعبت أغصانها، توكلت على الله سبحانه، واستخلصت لباب الكتاب بما يساوي ثلثه تقريبا، معتمدًا النسخة العربية التي ترجمها العلامة السيد أحمد الفهري، الطبعة الثانية، عام ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م، لعدم معرفتي باللغة الفارسية؛ وسالكًا المنهج الآتي:

١ـ الحفاظ على أسلوب الإمام المؤلف، فلم أغيّر في عباراته إلّا المقدار اليسير.

٢ـ استخلاص بؤر الدلالة المركزيّة في كل مقصد، وإبرازها على نحو ييّسر على القرّاء جهد الوقوف عليها.

٣ـ الحفاظ على السمة التربوية للكتاب، بخطاباته المؤثرة.

٤ـ مع مراعاة ما مرّ، سعيت لأن يكون «اللباب» بأصغر حجم ممكن، إذ كنت أعيد النظر في العبارة مرارًا، لأستغني عن أيّ مفردة يمكن الاستغناء عنها، من دون أن يحدث خلل في البيان.

٥ـ لم أثبت الأبحاث النظرية التي رأيت إمكانية الاستغناء عنها لمن همّه الارتقاء بصلاته، ولا سيما أني أردت من اللباب الفائدة العملية في تزكية النفس، والارتقاء الروحي.

٦ـ لم أثبت كثيرا مما أثبته سماحة السيد المترجم من هوامش لأن الغاية

التي أردتها من اللباب ليس البحث النظري، وإنما التزكية العملية.

٧ـ خرّجت الأحاديث غير المخرّجة من المصادر الحديثية اتمامًا للفائدة، وتسهيلا للرجوع إليها

ختامًا ما في «اللباب» من حسنة فالإمام الخميني ﷺ أولى بها، وما فيه من سيئة فهو من قصوري، أو تقصيري، فأسأل ربي المغفرة، وأسأل أخواني المؤمنين الدعاء.

والحمد لله أولًا وآخرًا

إياد الأرناؤوطي

جامعة بغداد ـ ١٤٣٦هـ

لباب مقدمة المترجم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله المعصومين خلفاء الله..

وبعد: لقد عيّن الله، جلت عظمته، بمقتضى تجلّيه باسم الربوبية، سلسلة عبادات جسمية، وواجبات أخلاقية، لتربية الإنسان، والوصول به إلى كماله اللائق له، والحصول على نصيبه من اللذائذ الروحية، والمعنوية، في عالمي الدنيا، والآخرة.

* إن الإنسان ما دام أسيرا للرذائل الأخلاقية، والممارسات القبيحة، تظل قواه المعنوية، والروحانية، في عالم الاستعداد، ولا تنتقل إلى عالم الفعلية؛ مثله في ذلك مثل الأميّ الذي يوضع في مكتبة تحوي نفائس الكتب، فهل ترى يفيد هذا الأمي من هذه الكتب؟؛ تأكيدًا لا؛ وليس للخالق العظيم، تبارك وتعالى، أي هدف شخصي في خلق العالم، لغناه الذاتي، وعدم احتياجه المطلق؛ قال عليّ عليه السلام: «**إن الله تعالى خلق الخلق حين خلقهم غنيّا عن طاعتهم، آمنا من معصيتهم؛ لأنه لا تنفعه طاعة من**

أطاعه، ولا تضرّه معصية من عصاه»؛ لكن من المسلّم به أن الخلق ليس عبثا، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

إن الإنسان من بين المخلوقات، قد أُوجد لغاية أعلى، ومقام أسمى، مقام لا يتحمله سواه، لا الأرض بجبالها الشاهقة، ولا السماء بمنظوماتها، ومجراتها، ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

* للوصول إلى هذا التكامل، أسس المتصدون لتربية البشر، من الأنبياء، وغيرهم، مدارس، وقرروا تعاليم؛ وتعاليم غير الأنبياء لا تخلو من إفراط، أو تفريط، ولم تستطع أن تشبع غريزة حبّ الكمال الموجودة في فطرة البشر، أما الأنبياء، والسفراء الإلهيون، فقد قرّروا أن طريق التكامل هو العبودية لله عز وجل؛ ولا سبيل إليه غيرها؛ وجاء في الحديث الصحيح عند الفريقين: عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ما تقرّب إليّ عبد بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضت عليه؛ وإنه ليتقرّب إليّ بالنافلة حتى أحبّه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها**». فنتيجة شدّة تقرّب العبد إلى الله هي الوصول إلى الحدّ الذي يكون الحق، تعالى، سمعه، وبصره، ولسانه.

* الصلاة، فريضة إسلامية كبرى، وهي أعلى صفّ في مدرسة الإسلام التربوية؛ وقد شرّعت لإيجاد العلاقة بين العبد، والحق تعالى،

وإحكام مباني العبودية. إن الصلاة تعطي قدرة للمصلّي ليقاوم في مواجهة الذنوب، والأحداث، كأنه بنيان مرصوص، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾.

* كثير من المصلين يصلّون؛ ولكنهم غافلون عن المقصد الأصلي للصلاة؛ لذا لا ينتفعون بها، ولا تؤثر في نفوسهم أصلا، أو أن أثرها قليل، غير محسوس؛ وهي التي وصفها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «**نقر كنقر الغراب**»؛ فلا تنهى عن الفحشاء، والمنكر؛ وهي صورة تشبه الصلاة، لا صلاة.

* صنّف العلماء العظام كتبا في أسرار هذه العبادة، وآدابها القلبية والمعنوية، ومنها الكتاب الحاضر، وهو كتاب لم يكتب مثله في هذا الموضوع، ويكفي للقارئ العيان عن البيان، وليس لمثلي أن يعرّف كتابا ألّفه العارف بالله، المرجع الأعلم، الأورع، آية الله العظمى الإمام الخميني، قائد الثورة الإسلامية، ومؤسس جمهوريتها، أدام الله ظلّه على رؤوس المسلمين؛ فترجمته الى العربية لتكون فائدته أعمّ وأشمل، وقد بذلت جهدي في الترجمة ألّا يتغيّر المعنى بكلمة، وأديت الأمانة ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت، وإليه أنيب.

وأنا العبد المفتاق إلى رحمة الله

أحمد الفهري

لباب مقدمة الإمام الخميني قدس سره

إنّ الصلاة غير هذه الصورة لمعنى، ولها دون هذا الظاهر لباطنا. وكما أن لظاهرها آدابا يؤدي عدم رعايتها الى بطلان الصلاة الصورية، أو نقصانها، فإن لباطنها آدابا قلبية، يلزم من عدم رعايتها بطلان، أو نقص، في الصلاة المعنوية، وهذا موافق للبرهان، ومطابق لمشاهدات أصحاب السلوك، والرياضة، وتدل عليه آيات، وأخبار كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾. فالآية الشريفة تدل على أن كل أحد يرى أعماله خيرها، وشرها، حاضرا، ويشاهد صورتها الباطنية الغيبية؛ ومثله قوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾، وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾.

وأما الأحاديث الشريفة في هذا المقام، فهي أكثر من أن تحتويها هذه الصفحات؛ ونكتفي بذكر بعضها.

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**من صلّى الصلوات المفروضات في أول وقتها، وأقام حدودها، رفعها الملك الى السماء بيضاء نقية، تقول: حفظك الله كما حفظتني، استودعتني ملكا كريما. ومن صلاّها بعد وقتها من غير علّة، ولم يقم حدودها، رفعها الملك سوداء مظلمة، وهي تهتف به: ضيّعتني، ضّيعك الله كما ضّيعتني، ولا رعاك الله كما لم ترعني**».

وعنه عليه السلام: «**إذا دخل المؤمن في قبره، كانت الصلاة عن يمينه، والزكاة عن يساره، والبرّ مظلّ عليه، ويتنحى الصبر ناحية، فإذا دخل عليه الملكان اللذان يليان مساءلته، قال الصبر للصلاة، والزكاة، والبرّ: دونكم صاحبكم، فإن عجزتم عنه، فأنا دونه**».

إن من أعلى مراتب الخسران، والضرر، الاقتناع بصورة الصلاة، وقشرها، والحرمان من بركاتها، وكمالاتها الباطنية، التي توجب السعادة الأبدية، بل جوار ربّ العزة، ومرقاة للعروج إلى مقام الوصول بوصل المحبوب المطلق، الذي هو غاية آمال الأولياء، ومنتهى أمنية أصحاب المعرفة، وأرباب القلوب، بل هو قرّة عين سيد الرسل صلى الله عليه وآله. ويا لها من حسرة تعجز عقولنا عن إدراكها، إلا بعد الخروج من هذه النشأة؛ فأيّ حسرة، وندامة، وضرر، وخسران، أعلى من أن ما هو وسيلة للكمال، والسعادة، للإنسان؛ ودواء للآلام، والنقائص القلبية، وهو الصورة الكمالية الإنسانية، يصير بعدما أتعب الإنسان نفسه في سبيله أربعين

سنة، أو خمسين سنة، لا يفيد منه فائدة روحانية، وليس هذا حسب، بل صار سببا للكدورات القلبية، والحجب الظلمانية، وما كان قرة العين للرسول الأكرمﷺ، يصير موجبا لضعف بصيرتنا، فواحسرتاه على ما فرّطت في جنب الله.

أيها العزيز، شمرّ ذيل الهمّة، وابسط على يد الطلب، وأصلح حالاتك، مهما تتحمّل من التعب، والمشقة؛ وحصّل الشرائط الروحية لصلاة أهل المعرفة، واستفد من هذا المعجون الإلهي، الذي اكتشف بالكشف التامّ المحمدي، لمعالجة الآلام، والنقائص النفسانية بأسرها، وارتحل ما دام الوقت باقيا من هذا المنزل المظلم، ودار الحسرة، والندامة، والبعد عن الساحة المقدسة الربوبية.

إننا نبيّن الآداب الباطنية لهذا السلوك الروحاني بمقدار الميسور، والمقتضى، فلعلّ لأهل الإيمان يكون نصيب منها، ولعل هذا يوجب الرحمة الإلهية، والتوجّه الغيّبي، بالنسبة إلى هذا المتوقّف عن طريق السعادة، والإنسانية، والمغلول في سجن الطبيعة، والأنانية؛ إنّه ولي الفضل والعناية..

التمهيد
في آداب العبادات عامة، وقراءة القرآن خاصة

أ) في آداب العبادات عامة

أولا: في التوجّه إلى عزّ الربوبية وذلّ العبودية

من الآداب القلبية لعبادات سالك طريق الآخرة، التوجّه إلى عزّ الربوبية، وذلّ العبودية، وقوّة سلوكه، بل كمال إنسانيته، تتحدد بحسب قوة هذا النظر، ومقداره، وإن حجاب رؤية النفس، وعبادتها، لأضخم الحجب وأظلمها، لذا كان خرقه أصعب من خرق الحجب الأخرى، وهو مفتاح مفاتيح الغيب والشهادة، وباب أبواب العروج إلى كمال الروحانية، وهو أول شروط السلوك إلى الله، بل هو الميزان في حقانية الرياضة، وبطلانها؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[1]؛ والهجرة هجرتان:

---

(١) النساء: ١٠٠

إحداهما: الهجرة الصورية، وهي هجرة البدن إلى الكعبة، أو إلى مشاهد الأولياء.

والأخرى: الهجرة المعنوية، وهي الخروج من بيت النفس، ومنزل الدنيا، إلى الله ورسوله؛ وما دام للسالك تعلّق ما بنفسانيّته، فهو في حكم الحاضر، لا المسافر، ولا المهاجر.

وقد ورد عن الصادق عليه السلام قوله: «العبودية جوهرة كنهها الربوبية، فما فُقد في العبودية وجد في الربوبية، وما خفي من الربوبية أُصيب في العبودية»[1].

فمن سعى بخطوة العبودية، وصل إلى عزّ الربوبية، حتى يصل إلى مقام الفناء فيها، فحينئذ يكون المتصرف في الدار صاحبها الحق سبحانه، فيكون بصره بصرًا إلهيًا، فينظر ببصر الحق،؛ ويكون سمعه سمعًا إلهيًا، فيسمع بسمع الحق.

إنّ عزّ الربوبية، وذلّ العبودية، مرموزان في جميع العبادات، ولا سيّما الصلاة، التي لها مقام الجامعية؛ ومنزلتها بين العبادات منزلة الإنسان الكامل، ومنزلة الاسم الأعظم، بل هي عينه.

وإن العبودية المطلقة من أعلى مراتب الكمال، وأرفع مقامات الإنسانية، وليس لأحد فيها نصيب سوى أكمل خلق الله محمد صلى الله عليه وآله، قال

(١) مصباح الشريعة: ٧

الله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ﴾[١]؛ فقد أسرى الله سبحانه بتلك الذات المقدسة إلى معراج القرب، والوصول بقدم العبودية، والجذبة الربوبية؛ فله وحده هذا المقام بالأصالة؛ وللأولياء الكمّل بالتبعية؛ أما بقية العباد، فهم في طريق العبادة عُرج، وعبادتهم وعبوديّتهم معلّلة.

ولأهل السلوك في هذا المقام، وسائر المقامات، مراتب لا تحصى، قال الصادق عليه السلام: «**الإيمان درجات، وطبقات، ومنازل؛ فمنه التام المنتهي تمامه ومنه الناقص البيّن نقصانه ومنه الراجح الزائد رجحانه**»[٢]؛ ومن هذه المراتب:

المرتبة الأولى: مقام العلم: وهي أن يثبت بالسلوك العلمي، والبرهان الفلسفي، ذلة العبودية، وعزة الربوبية، وهذا لبّ من لباب المعارف.

إنّ سالك طريق الحقيقة، ومسافر سبيل العبودية، إذا قطع هذا المنزل بالسلوك العلمي، يصل إلى المقام الأول للإنسانية، لكنّه يقع في حجاب العلم، وهو من الحجب الغليظة، فإذا قنع بهذا المقام، وقع في الاستدراج، بأن يشتغل بالتفريعات العلمية الكثيرة، فيحرم من المنازل الأخَر، ويغفل عن الوصول إلى الفناء في الله.

المرتبة الثانية: مقام الإيمان، وهو أنّ يكتب بقلم العقل على صحيفة

---

(١) الإسراء: ١

(٢) تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٥٩

قلبه كل ما أدركه عقله بالبرهان؛ كي يوصل حقيقة ذلّ العبودية، وعزّ الربوبية إلى القلب، ويفرغه من القيود، والحجب العلمية.

المرتبة الثالثة: مقام الاطمئنان، وهو المرتبة الكاملة من الإيمان، قال تعالى مخاطبا خليله ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[1].

المرتبة الرابعة: مقام المشاهدة، وهو نور إلهي، وتجلّ رحماني، يظهر في سرّ السالك، وينوّر قلبه بنور شهوديّ، فيرى نفسه مستغرقًا في البحر اللامتناهي، ومن ورائه بحر عميق في غاية العمق، تنكشف له فيه نبذة من أسرار القدر.

ولكل من هذه المقامات استدراج يختص به، وللسالك فيه هلاك عظيم، فلا بدّ للسالك في جميع هذه المقامات من تخليص نفسه من الأنانية، ومن رؤية نفسه وحبّها، فإنه منبع أكثر المفاسد.

ثانيا: في الخشوع

الخشوع: هو الخضوع التام الممزوج بالحب، أو الخوف؛ ويحصل من إدراك عظمة الجلال، والجمال، وسطوتهما، وهيبتهما. إن حقيقة الخشوع حالة قلبية تحصل للقلب من إدراك الجلال، والجمال، فيخضع ويسلّم لصاحبهما. وبهذه العناية نسب الخشوع إلى الأرض، والجبال، فإن

(١) البقرة: ٢٦٠

الأرض مسلّمة للعوامل الطبيعية، وليس لها إرادة في إنبات النبات، بل هي تسليم محض، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[1].

وتنقسمّ قلوب أهل السلوك بحسب الجِبلّة والفطرة على قسمين:

أحدهما: عشقّي، تمثل مظهرًا من مظاهر الجمال، مجبولة على الميل إلى جمال المحبوب، فتغشاهم هيبة جماله وعظمته؛ هذه الحالة تسبب في بداية الأمر اضطرابا، وتزلزلا في القلب، وبعد جمع الجنان تتحول إلى حالة من الأنس، فتحصل حالة الطمأنينة، تماما كما كانت حالة قلب خليل الرحمن عليه السلام.

والآخر: خوفّي، تمثل مظهرا من مظاهر الجلال، فهي في حالة إدراك متواصل للعظمة والكبرياء والجلال، فيكون خشوعهم خوفيا، وتحصل في قلوبهم تجلّيات الأسماء القهرية والجلالية، وهو حال يحيى عليه السلام.

فالخشوع يمتزج تارةً بالحب، وأخرى بالخوف والرهبة، وإن كان في كل حبّ رهبة، وفي كل خوف حبّ.

قال الصادق عليه السلام: «**إذا دخلت في صلاتك فعليك بالتخشّع، والإقبال على صلاتك**، فإن الله تعالى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ

(١) فصلت: ٣٩

خَٰشِعُونَ ﴾[1]»[2].

ويرى المحقق الكاشاني أنّ الخشوع في الصلاة على قسمين:

أحدهما: الخشوع القلبي، وهو أن يكون تمام همّته في الصلاة، معرضا عما سواها، ليس في قلبه سوى المحبوب.

والآخر: الخشوع في الجوارح، ويحصل بأن يغمض عينيه، ولا تصدر منه حركة سوى الحركات الصلاتية.

إنّ صلواتنا ليست مشفوعة بالخشوع، لنقص إيماننا، أو فقدانه؛ فيلزم للسالك أن يوصل إلى قلبه عظمة الحق، وجلاله، وجماله، كي يخشع قلبه؛ وإلا فمجرد العلم لا يوجب خشوعا.

إن على السالك بالخطوة المعراجية الصلاتية أن يحصّل الخشوع بنور العلم والإيمان، وهو أمر ممكن بالممارسة، والارتياض القلبي؛ إن تحصيل الكمال، وزاد الآخرة يستدعي طلبا، وجدّا، وكلما كان المطلوب أعظم، كان أحرى بالجدّ.

إن طريق الوصول إلى السعادة، إنما هو إطاعة رب العزة؛ وليس في العبادات ما يضاهي الصلاة؛ فإنها إن قبلت قبلت جميع الأعمال؛ فلا بدّ لك من الجدّ التام في طلبها، وتحمل المشاق في سبيلها؛ والحق أنه ليس

---

(١) المؤمنون: ٢

(٢) الكافي: ج٣، ص٣٠٠، باب: الخشوع في الصلاة، ح٣.

فيها مشقة، بل إنك إذا واظبت عليها مدة يسيرة، وحصل لقلبك الأنس بها، تجد في هذا العالم من مناجاة الحق تعالى شأنه لَذّات لا تقاس بها لذّة من لذّات هذا العالم.

الخلاصة: إذا علم الإنسان بالبرهان، أو ببيان الأنبياءعليهم السلام، عظمة الله، وجماله، وجلاله، فلا بدّ من أن يذكِّر القلب بها، حتى يدخل الخشوع شيئا فشيئا في القلب، بواسطة التذكُّر، والتوجه القلبي، والمداومة على ذكر عظمة الله،، وجلاله، حتى تحصل النتيجة المطلوبة. وليتذكر السالك في جميع حالاته نقائصه ومعايبه؛ فعلّه ينفتح له طريق إلى السعادة.

ثالثا: في الطمأنينة

الطمأنينة: إتيان العبادة مع سكون القلب؛ لأن القلب لا ينفعل بالعبادة إذا أتي بها في حال اضطرابه، وتزلزله، ولا يحصل لها أثر في ملكوته. إن إحدى مقاصد تكرار العبادات، والأذكار أن يتأثر القلب بها، وينفعل، حتى يتشكل باطن السالك شيئا فشيئا من حقيقة الذكر، والعبادة، ويتحد قلبه بروحها، ويسري أثرها في ظاهر البدن، وملكه.

جاء عن الإمام الصادقعليه السلام قوله: «فاجعل قلبك قبلة للسانك، لا تحركه إلا بإشارة القلب، وموافقة العقل، ورضا الإيمان[1]»؛ ففي أول

(١) مصباح الشريعة: ٥٥

الأمر، ما لم ينطق لسان القلب، فلسالك طريق الآخرة أن يعلّمه النطق، ويلقي عليه الذكر، مع طمأنينة وسكون؛ فإذا انفتح لسان القلب بالنطق، يكون القلب قبلة للّسان، ولسائر الأعضاء؛ فإذا شرع القلب في ذكر تكون مدينة وجود الإنسان بأسرها ذاكرة، وبخلاف ذلك لا تأثير له في القلب، ولا تتحقق حقيقته في الباطن؛ فإن إصابت الإنسان الأهوال والشدائد، ولا سيما أهوال الموت، وسكراته، ينسى الذكر بالمرّة، وينمحي عن صحيفة قلبه، بل ينسى اسم الله سبحانه وتعالى، واسم الرسول الخاتم، والإسلام، والكتاب المقدس الإلهي، والأئمة الهداة، وسائر المعارف؛ فينساها كلها؛ وعند السؤال في القبر لا يجد جوابا؛ ولا ينفعه التلقين، لأنه لا يجد في نفسه من حقائقها أثرًا؛ وما قاله بلسانه قد انمحى من خاطره.

وفي الحديث أن طائفة من أمة الرسول الأكرمﷺ، إذا أُوردوا النار، ونظروا إلى مالك، خازن جهنم، نسوا اسم الرسولﷺ من هيبته، على الرغم من أنهم من أهل الإيمان.

وقد ذكر الشيخ المجلسي أن من لم يصرف بصره وسمعه وسائر أعضائه في سبيل إطاعة الحق تعالى، لم يكن له بصر وسمع روحاني؛ وهذا البصر والسمع الملكي الجسماني لا ينتقل إلى ذاك العالم، ويكون الإنسان في عالم القبر والقيامة بلا سمع وبلا بصر، والميزان في السؤال والجواب في القبر تلك الأعضاء الروحانية.

وفي الحديث الشريف: «**ما من شيء أحبّ إلى الله عزّ وجل من عمل يداوم عليه وإن قلّ**»[١]؛ ولعل السر أنه بالمداومة يكون العمل صورة باطنية للقلب.

رابعاً: في الحفاظ على العبادة من تصرف الشيطان

قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾[٢] إشارة إلى جميع مراتب الحفظ التي منها، بل أهمها، الحفاظ عليها من تصرفات الشيطان.

ومن الواضح أنه كما أنّ للأبدان غذاء جسمانيا تتغذى به، لا بد من أن يكون مناسبا لحالها، حتى تتيسر لها التربية الجسمانية، والنمو النباتي، كذلك للقلوب والأرواح غذاء لا بد من أن يكون مناسبا لحال كل منها، موافقا لنشأتها، كي تتربى به، وتتغذى منه، وتنمو نموا معنويا، وتترقى ترقيا باطنيا.

إنّ الغذاء المناسب لنشأة الأرواح هو المعارف الإلهية؛ فقد قال أعاظم أرباب الفلسفة في تعريفها: إنّها صيرورة الإنسان عالما عقليا مضاهيا للعالم العيني في صورته وكماله؛ في حين أن تغذي القلوب

---

(١) الكافي: ج٢، ص٨٢، باب: استواء العمل، ح٣

(٢) المؤمنون: ١٠

يستمد من الفضائل والمناسك الإلهية؛ فعلى سالك طريق الآخرة، لزوما حتما، أن يخلص معارفه ومناسكه من تصرف الشيطان، والنفس الأمارة، مهما كلفه من الجهد، وأن يغوص في حركاته الباطنية، وتغذياته الروحية؛ لأن الأغذية الروحانية إذا لم تكن خالصة من تصرف الشيطان، لا تتربى بها الأرواح، والقلوب، بل تزيدها نقصًا، فتجعل صاحبها منسلكا في سلك الشياطين، والبهائم، والسباع.

إنّ من أرباب الرياضات والسلوك، مَن جعلت رياضتهم، واشتغالهم بتصفية النفس، قلوبهم أكدر، وباطنهم أظلم، لأنهم لم يتحفظوا على سلوكهم المعنوي الإلهي، ومهاجرتهم إلى الله، فتصرف بهم الشيطان، والنفس.

وكذلك بعض طلاب العلوم النقلية الشرعية أثّر فيهم العلم سوءًا، وزاد في مفاسدهم الأخلاقية، فصار سببا لهلاكهم، ودعاهم إلى المراء، والاستطالة.

وكذلك بعض أهل العبادة والمناسك، حملتهم عبادتهم على العجب، والكبر، وسوء الظن بعباد الله.

فعلى سالك طريق الآخرة الآتي:

أولًا: أن يواظب بكمال المواظبة، والدقة، على حاله كطبيب رفيق، ورقيب شفيق، ويفتش بالدقة عن عيوب سيره وسلوكه.

ثانيًا: أن لا يغفل في خلال هذه المراقبة والتفتيش عن التعوذ بالذات المقدسة للحق جلّ وعلا في خلواته، والتضرع، والاستكانة إلى جنابه الأقدس ذي الجلال.

خامسًا: في النشاط والبهجة في العبادة

على السالك أن يجتهد في أن تكون عبادته عن نشاط، وبهجة، في قلبه؛ وفرح، وانبساط في خاطره؛ ويحترز احترازا شديدًا من أن يأتي بالعبادة مع الكسل، وإدبار النفس؛ لأنه إذا حمل على النفس العبادة في حين الكسل والتعب، يمكن أن تترتب عليه الآثار السيئة، ومنها: التضجر من العبادة، ويوجب ذلك تدريجيّا التنفر منها، وقد ينصرف الإنسان بالكلية عن ذكر الحق.

إنّ من نتائج العبادات أن تكون إرادة النفس نافذة في ملك البدن، وتكون قواه مسلمة لملكوت القلب، وباطنه، بل تفنى هذه القوى في الملكوت؛ فتساق جنود النفس من الإيمان إلى التسليم، ومن التسليم إلى الرضا، ومن الرضا إلى الفناء؛ وهذا لا يتحقق إلا إذا كانت العبادة عن نشاط، وبهجة.

إن أطباء البدن يقولون بأن الطعام إذا أكل بالسرور، والبهجة، كان أسرع في الهضم،؛ كذلك أطباء الروح يقولون بأن الإنسان إذا تغذى بالأغذية الروحانية بالبهجة والاشتياق، محترزا من الكسل، والتكلف، تظهر آثارها في صفاء القلب أسرع.

قال تعالى في مقام تكذيب الكفار، والمنافقين: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾[1]. وقد فسرت آية ﴿لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾[2] في حديث بأن المراد من **سُكَارَى**: كسالى.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يا عليّ انّ هذا الدين متين فأوغل برفق، ولا تبغّض إلى نفسك عبادة ربّك**»[3].

وفي الحديث عن الإمام العسكري عليه السلام: «**إذا نشطت القلوب فأودعوها، وإذا نفرت فودّعوها**»[4]؛ وهذا دستور جامع منه عليه السلام بأن أودعوا القلوب في وقت نشاطها، وأما في وقت نفارها فخلّوها تستريح.

ولا بد في كسب المعارف والعلوم من رعاية هذا الأدب، وألا يحمل على القلوب اكتسابها مع الكراهة، والنفور.

فعلى السالك، ولا سيما الشاب، أن يراعي حاله في المرتبة التي هو فيها في الرياضات، والمجاهدات العلمية، أو النفسانية، أو العمليّة، ويعامل نفسه بالرفق، والمداراة؛ ولا يحمّلها أكثر من طاقتها؛ لأن النفس ربما تصير بسبب الضغط عليها، وكفها عن مشتهياتها أكثر من العادة،

---

(١) التوبة: ٥٤

(٢) النساء: ٤٣

(٣) الكافي: ج٢، ص٨٧، باب: الصبر، ح٦

(٤) بحار الانوار: ج٦٧، ص٦٠، ح٤٠.

مطلقة العنان في شهواتها، فيخرج زمام الاختيار من يد صاحبها؛ فإذا تراكمت نار الشهوة الحارّة، اشتعلت لا محالة، وأحرقت جميع مملكة الإنسان؛ فعلى السالك أن يتملك نفسه في أيام سلوكه كطبيب حاذق؛ وأن يخمد نار الشهوة بالطرق المشروعة، فإن في إطفاء الشهوة بطريق الأمر الإلهي، إعانة كاملة على سلوك طريق الحق؛ فليتزوج، فإنه من السنن الكبيرة الإلهية، وفضلا عن أنه مبدأ البقاء للنوع الإنساني، فإن له دورًا واسعا في سلوك طريق الآخرة؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**من تزوّج فقد أحرز نصف دينه**»(١). وعن عليّ عليه السلام قال: «**إن جماعة من الصحابة كانوا حرّموا على أنفسهم النساء، والإفطار بالنهار، والنوم بالليل، فأخبرت أم سلمة رسول الله، فخرج إلى أصحابه فقال: أترغبون عن النساء ؟ إني آتي النساء، وآكل بالنهار، وأنام بالليل، فمن رغب عن سنّتي فليس مني**». **وأنزل الله**: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾(٢).

وقال رسول الله: «**إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق، ولا تكرهوا عبادة الله إلى عباد الله، فتكونوا كالراكب المنبتّ، الذي لا سفرا قطع، ولا**

(١) الكافي: ج٥، ص٣٢٩، باب: كراهية الغربة، ح٢ «من تزوّج أحرز نصف دينه».
(٢) المائدة: ٨٧ ـ ٨٨

ظهرا أبقى»[1].

أما الذين طووا أيام عنفوان الشباب، وانطفأت نائرة الشهوات شيئا ما لديهم، فالمناسب لهم أن يجدّوا في الرياضات النفسانية أكثر، ويدخلوا في السلوك والرياضة بخطوة رجولية؛ فكلما عوّدوا النفس على الرياضات، فتح لهم باب آخر إلى أن تغلب النفس القوى الطبيعية، وتصير القوى الطبيعية مسخّرة تحت كبرياء النفس.

سادساً: في التفهيم

التفهيم أن يعامل الإنسان قلبه في أول الأمر كطفل لم ينفتح لسانه بعد، وهو يريد أن يعلّمه الأذكار، والأوراد، والحقائق، وأسرار العبادات، بكمال الدقة، والسعي بحسب المرتبة التي هو فيها؛ فإذا لم يكن من أهل فهم معاني القرآن، والأذكار، يفهّم القلب المعنى الإجمالي، وهو أن القرآن كلام إلهي، والأذكار مذكرات بالحق تعالى، والعبادات إطاعة لأمر الربّ؛ وإن كان أهلا لفهم المعاني الصورية للقرآن، والأذكار، فيفهّم القلب المعاني الصورية من الوعد، والوعيد، والأمر، والنهي؛ ومن علم المبدأ والمعاد، بالمقدار الذي أدركه.

ونتيجة هذا التفهيم هو أنه بعد المواظبة بمدة ينفتح لسان القلب،

---

(١) وسائل الشيعة: ج٢٠، ص ٢١، ح٢٤٩٢١

ويكون القلب ذاكرًا، ومتذكرا.

في أول الأمر كان القلب متعلما، واللسان معلّما، وأما بعد انفتاح لسان القلب، فيكون القلب ذاكرا أوّلا، ويتبعه اللسان في الذكر والحركة؛ بل ربما يتفق أن الإنسان في حالة النوم يكون لسانه ذاكرا تبعا للذكر القلبي، لأنّ الذكر القلبي لا يختصّ بحال اليقظة؛ فإذا كان القلب متذكرا يكون اللسان التابع له ذاكرا أيضًا، ويسري الذكر من ملكوت القلب إلى الظاهر ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾[1].

وليعلم أن من أسرار تكرار الأذكار، والأدعية، ودوام الذكر، والعبادة، انفتاح لسان القلب؛ فيكون ذاكرًا، وداعيًا، وعابدًا؛ وقد كان أولياء الله يلاحظون هذا الأدب حتى الكمّل منهم، ففي الحديث أن مولانا جعفر بن محمد الصادق عليه السلام كان في صلاته، فغشي عليه، فلمّا أفاق، سُئل عن سببه فقال: **مازلت أردد هذه الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته**[2].

وبالجملة فحقيقة الذكر، والتذكر، هي الذكر القلبي؛ أما الذكر اللساني فهو من دونه ذكر بلا لبّ، وساقط عن درجة الاعتبار بالمرة، فعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال لأبي ذرّ: «**يا أبا ذرّ، ركعتان مقتصدتان**

(١) الإسراء: ٨٤

(٢) التفسير الصافي: ٧٣/١، مع اختلاف يسير

في تفكر، خير من قيام ليلة، والقلب لاه (ساه)»[1].

سابعًا: في حضور القلب

إنما تنتج العبادات نتيجة كاملة، إذا صارت صورة باطنية للقلب، وتخمّر باطن الإنسان بها؛ ومن فوائد العبادات، أن تتقوى إرادة النفس، فتكون القوى بالنسبة إليها، كالملائكة بالنسبة إلى الحق تعالى ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾[2]، ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[3].

وإن من أسرار العبادات، وفوائدها المهمة، التي بقية الفوائد مقدمة لها، أن تكون مملكة البدن بجميعها: ظاهرها، وباطنها، مسخّرة تحت إرادة الله تعالى، وتكون القوى الملكوتية، والملكية، للنفس من جنود الله، فيصبح الإنسان الطبيعي إلهيا، والنفس مرتاضة بعبادة الله، وتنهزم جنود إبليس نهائيًّا؛ وهذه النتائج لا تحصل إلا بالحضور الكامل للقلب، فإذا كان القلب في وقت العبادة غافلا، وساهيا، فعبادته تشبه اللهو، واللعب؛ ولذا نرى أنه بعد مضيّ أربعون، أو خمسون سنة، لا يحصل أثر في أنفسنا، بل تزداد يوما فيوم ظلمة القلب؛ لأن عبادتنا قشور بلا لبّ، وفاقدة للشرائط الباطنية، والآداب القلبية.

---

(١) وسائل الشيعة: ج٤، ص٧٥، ح٤٥٥١

(٢) التحريم: ٦

(٣) الأنبياء: ٢٧

إن كتاب الله سبحانه قد نصّ على أن الصلاة تنهى عن الفحشاء، والمنكر؛ فلماذا لا نرى في أنفسنا هذا النور، ولا نجد في باطننا هذا الزاجر، والمانع.

ورد عن الرسول الخاتمﷺ: «**اعبد الله كأنك تراه، وان لم تكن تراه فإنه يراك**»[١]؛ يُفاد من هذا الحديث مرتبتان من مراتب حضور القلب:

الأولى: أن السالك يكون مشاهدا جمال الجميل في تجليات حضرة المحبوب على نحو يكون مشغولا بالحاضر، وغافلا عن المحضر والحضور.

الثانية: وهي دون الأولى، أن يرى السالك نفسه حاضرا في محضره، ويلاحظ أدب الحضور والمحضر.

كأن الرسول الاكرم يقول: إن كنت تستطيع أن تكون من أهل المقام الأول، وتأتي بعبادة الله على ذلك النحو، فافعل، وإلا فلا تغفل عن أنك في المحضر الربوبي.

وفي حديث آخر عنهﷺ: «**إنّ الرجلين من أمتي يقومان إلى الصلاة، وركوعهما، وسجودهما، واحد؛ وإن ما بين صلاتهما ما بين السماء والأرض**»[٢]؛ وقالﷺ: «**من صلّى ركعتين لم يحدّث فيهما نفسه بشيء من الدنيا، غفر الله له ذنوبه**»[٣] وعنهﷺ: «**إن من الصلاة لما يقبل نصفها،**

(١) الامالي ص: ٥٢٦، ح١١٦٢

(٢) بحار الانوار: ج٨١، ص٢٤٩، ح٤١

(٣) بحار الانوار: ج٨١، ص٢٤٩، ح٤١

وثلثها، وربعها، وخمسها، إلى العشر؛ وإن منها لما تلفّ كما يلفّ الثوب الخلق، فيضرب بها وجه صاحبها»[١]

وقال الصادق عليه السلام: «**لا تجتمع الرغبة، والرهبة، في قلب، إلا وجبت له الجنة؛ فإذا صلّيت، فأقبل بقلبك إلى الله عزّ وجلّ؛ فإنه ليس من عبد يقبل بقلبه على الله (عزّ وجلّ) في صلاته ودعائه، إلا أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين، وأيّده مع مودّتهم إيّاه بالجنة**»[٢].

ولتحصيل حضور القلب في العبادات، على السالك إلى الله أن يرفع أولا موانع الحضور، وهي تشتّت الخواطر، وكثرة الواردات القلبية؛ وهذه تحصل من طريقين:

الأول: التشتت من الأمور الخارجية، والحواس الظاهرية، كأن يسمع في حال العبادة شيئا يتعلق به الضمير، ويكون مبدأ للتخيلات الباطنية وتتصرف فيه الواهمة، والمتصرفة، فيطير الخيال من غصن إلى غصن؛ أو أن عين الإنسان ترى شيئا، ويكون منشأ تشتّت الخاطر، وتصرُّف المتصرفة؛ أو أن سائر حواس الإنسان تدرك شيئا، فتحصل منه انتقالات خيالية. وقد ذكر العلماء أنّ طريق علاج هذه الأمور، هو رفع هذه الأسباب، كأن يصلي الإنسان في غرفة مظلمة، أو مكان خال، ويغضّ عينه، ولا يصلي في

(١) بحار الانوار: ج٨١، ص٢٦٠، ح٥٩

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج١، ص٢٠٩، ح٦٣٢

المواضع التي تجلب النظر؛ ولكن هذا لا يرفع تصرّف الخيال؛ نعم هذا النحو من العلاج ربما لا يخلو في بعض النفوس من تأثير.

الثاني: التشتت من الأمور الباطنية، وينشأ من أمرين:

أحدهما: أنّ طائر الخيال هو بنفسه فرّار، كطائر من غصن إلى غصن؛ وعلاجه بالرياضة، والتربية، والعمل على الخلاف؛ وطريقة العلاج: أن الإنسان حينما يريد أن يصلي، يهيئ نفسه بأن يحفظ خياله في الصلاة، وبمجرد أن الخيال يريد أن يفّر من يده يسترجعه فورا، ويلتفت إلى حاله في جميع حركات الصلاة، وسكناتها، وأذكارها؛ وهذا ربما يبدو في أول الأمر أمرا صعبًا، ولكن بعد العمل به مدة بدقة، يصير طائعا حتما، ويرتاض على الإطاعة بالتدريج، والتأنّي، والصبر؛ فيمكن أن يحبس الخيال في أول الأمر في عُشر الصلاة، فيحصل حضور القلب في عُشر منها، وبالتدريج يزداد ذلك، ولا بد للإنسان من أن لا ييأس؛ فإن اليأس منبع الوهن والضعف؛ ونور الرجاء في القلب، يوصل الإنسان إلى كمال سعادته؛ ولكن العمدة في هذا الباب هو حسّ الاحتياج، الذي هو فينا قليل، لأن قلوبنا لم تؤمن بأن رأس المال في سعادة العالم الآخر، ووسيلة العيش في الأيام غير المتناهية، هو الصلاة، فإذا آمنّا بذلك فلا محالة سنسعى في تحصيله، ولا نجد لأنفسنا في هذا السعي، والاجتهاد أي تعب، أو مشقة، أو تكلّف.

ومن الوظائف المهمة للسالك إلى الله، والمجاهد في سبيله، أن يرفع

اليد بالكلية في خلال مجاهدته، وسلوكه، عن الاعتماد على نفسه؛ فيتوجه إلى مسبّب الأسباب، ويطلب من ذاته المقدسة العصمة، والحفظ؛ ويعتمد على تأييد ذاته الأقدس؛ ويتضرع في خلواته إلى حضرته؛ ويطلب إصلاح حاله؛ مع كمال الجد في الطلب منه تعالى، فإنه لا ملجأ غير ذاته المقدسة.

والآخر: حب الدنيا؛ لأن قلوبنا لما كانت مختلطة بحب الدنيا، وليس لها مقصد، ولا مقصود، غير تعميرها؛ فلا محالة أن هذا الحب مانع من فراغ القلب وحضوره في ذلك المحضر القدسيّ، وعلاج هذا المرض المهلك، والفساد المبيد، هو العلم، والعمل، النافعان.

أمّا العلم النافع لهذا المرض، فهو التفكر في ثمراته، ونتائجه؛ والمقايسة بينها وبين المضار والمهالك الحاصلة منه.

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «**رأس كل خطيئة حب الدنيا**»[1]. فما أسّس في العالم دين كاذب، ولا مذهب باطل؛ وما اتفق في الدنيا فساد إلا بواسطة هذه الموبقة العظيمة؛ وإنّ القتل، والنهب، والظلم، والتعدي، هي نتائج هذه الخطيئة. وإن الفجور، والفحشاء، والسرقة، وسائر الفجائع، وليدة هذه الجرثومة للفساد، والإنسان الذي وقر فيه هذا الحب، مجانب لجميع الفضائل المعنوية، وان الشجاعة، والعفّة، والسخاء، والعدالة التي هي مبدأ جميع الفضائل النفسانية، لا تجتمع مع

(١) الكافي: ج٢، ص٣١٥، باب: حب الدنيا:، ح١

حب الدنيا؛ وإن المعارف الإلهية، والتوحيد في الأسماء، والصفات، والأفعال، والذات، وطلب الحق، ورؤيته، مضادة لحب الدنيا؛ وإن طمأنينة النفس، وسكون الخاطر، واستراحة القلب التي هي روح السعادة في الدنيا، لا تجتمع مع حب الدنيا، وإن غنى القلب، والكرامة، وعزّة النفس، والحرية، كلها من لوازم عدم الاعتناء بالدنيا؛ والفقر، والذلّة، والطمع، والحرص، والرقّيّة، والتملّق، من لوازم حب الدنيا؛ فإذا علم أن حبّ الدنيا هو منشأ جميع المفاسد، فعلى الإنسان العاقل الطالب لسعادته، أن يخلع هذه الشجرة بجذورها عن القلب.

وأما طريق العلاج العملي فهي أن يعامله بالضدّ، فإذا كان تعلقه بمال، ومنال، فإنه يقطع جذورها عن القلب، ببسط اليد، والصدقات الواجبة، والمستحبة، فإن من أسرار الصدقات، تقليل العلاقة بالدنيا؛ ولهذا يستحبّ للإنسان أن يتصدّق بالشيء الذي يحبّه، ويتعلق قلبه به، قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1]؛ وإن كانت علاقته بفخر، وتقدّم، ورياسة، واستطالة، فليعمل ضدّها، ويرغم النفس حتى تصير إلى الصلاح.

عن باقر العلوم عليه السلام: «**مثل الحريص على الدنيا مثل دودة القزّ، كلما ازدادت من القزّ على نفسها لفّا، كان أبعد لها من الخروج حتى**

(١) آل عمران: ٩٢

تموت غمّا»[١].

وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: «**مثل الدنيا كماء البحر، كلما شربه إنسان عطشان، يزيد عطشه حتى يقتله**»[٢].

فأنت يا طالب الحق، والسالك إلى الله، إذا طوّعت طائر الخيال، وقيّدت شيطان الواهمة، وخلعت نعلي حبّ النساء، والأولاد، وسائر الشؤون؛ واستأنست بجذوة نار العشق لفطرة الله؛ وقلت: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾[٣]، ووجدت نفسك خاليا من موانع السير، وهيّأت أسباب السفر، فقم من مكانك، واهجر هذا البيت المظلم للطبيعة، والمعبر الضيق المظلم للدنيا؛ واقطع سلاسل الزمان، وقيوده؛ وانج بنفسك من هذا السجن؛ وأطر طائر القدس إلى محفل الأنس.

ب) في آداب قراءة القرآن الشريف المطلقة

من هذه الآداب:

الأدب الأول: التعظيم

وهو موقوف على فهم عظمته، ونبالته، وجلالته، وكبريائه؛ وهذا

---

(١) الكافي: ج٢، ص١٣٤، باب: ذم الدنيا والزهد فيها، ح٢٠

(٢) مفتاح السعادة: ج٥، ص٣١٨

(٣) طه: ١٠

المعنى لا طاقة للبشر عليه، لأن فهم عظمة كل شيء منوط بفهم حقيقته؛ وحقيقة القرآن الشريف قبل تنزّله إلى المنازل الخلقية، وتطوّره بالأطوار الفعلية، من الشؤون الذاتية، والحقائق العلمية، للحضرة الواحدية؛ وهو حقيقة الكلام النفسي، الذي هو مقارعة ذاتية في الحضرة الأسمائية؛ وهذه الحقيقة لا تحصل لأحد، لا بالعلوم الرسمية، ولا بالمعارف القلبية، ولا بالمكاشفة الغيبية، إلا بالمكاشفة التامة الإلهية لذات النبي الخاتم المباركةﷺ، ومنه إلى النفس الشريفة لولي الله المطلق علي بن أبي طالبعليه السلام؛ وأما سائر الخلق فلا يقدرون على أخذ هذه الحقيقة إلا مع التنزّل عن مقام الغيب إلى موطن الشهادة، والتطور بالأطوار الملكية، والتكسي بكسوة الألفاظ، والحروف الدنيوية، وهذا أحد معاني التحريف الذي وقع في جميع الكتاب الإلهي، والقرآن الشريف؛ وعدد مراتب التحريف مطابق لعدد مراتب بطون القرآن؛ إلا أن التحريف عبارة عن التنزّل عن الغيب المطلق إلى الشهادة المطلقة، بحسب مراتب العوالم؛ والبطون هي الرجوع من الشهادة المطلقة إلى الغيب المطلق، فمبدأ التحريف، ومبدأ البطون، متعاكسان؛ والسالك إلى الله إذا وصل إلى أي مرتبة من مراتب البطون، قد تخلص من مرتبة من مراتب التحريف، إلى أن يصل البطون المطلقة وهي البطن السابع.

إنّ فهم عظمة القرآن خارج عن طوق الإدراك؛ ولكن الإشارة

الإجمالية إلى عظمة هذا الكتاب المتنزل، والمتناول لجميع البشر، موجبة لفوائد كثيرة.

إن عظمة كل كلام وكل كتاب إما بعظمة متكلمه وكاتبه، وإما بعظمة المرسل اليه وحامله، وإمّا بعظمة حافظه وحارسه، وإما بعظمة شارحه ومبيّنه، وإما بعظمة وقت إرساله وكيفية إرساله؛ وجميع هذه الأمور موجودة في هذه الصحيفة النورانية بالوجه الأعلى، والأوفى، بل هي من مختصاته؛ فكل كتاب آخر إما أن لا يشاركه في شيء منها أصلا، أو لا يشاركه في جميعها.

أما عظمة متكلمه، ومنشئه، وصاحبه، فهو العظيم المطلق، الذي جميع أنواع العظمة المتصورة في الملك والملكوت، وجميع أنواع القدرة النازلة في الغيب والشهادة، رشحة من تجليات عظمة فعل تلك الذات المقدسة؛ ولا يمكن أن يتجلى الحق تعالى بالعظمة لأحد، وإنما يتجلى بها من وراء آلاف الحجب، والسرادقات، ففي الحديث: «**إن لله تبارك وتعالى سبعين ألف حجاب من نور وظلمة، لو كشفت، لأحرقت سبحات وجهه دونه**»[1].

وأما عظمة رسول الوحي، وواسطة الإيصال، فهو جبرائيل الأمين،

(١) بحار الانوار: ج٥٥، ص٤٥، ح١٣

والروح الأعظم، الذي يتصل بذاك الروح الأعظم الرسول الأكرم ﷺ بعد خروجه عن الجلباب البشري، وتوجيه شطر قلبه إلى حضرة الجبروت، وهو أحد أركان دار التحقق الأربعة، بل هو أعظم أركانها، وأشرف أنواعها، لأن تلك الذات النورانية، ملك موكل للعلم، والحكمة، وصاحب الأرزاق المعنوية، والأطعمة الروحانية، ويُفاد من كتاب الله، والأحاديث الشريفة، تعظيم جبرائيل، وتقديمه على سائر الملائكة.

وأما عظمة المرسل إليه، ومتحمّله، فهو القلب التقي، النقي، الأحمدي، الأحدي، الجمعي، المحمدي، الذي تجلى له الحق تعالى بجميع الشؤون الذاتية، والصفاتية، والأسمائية، والأفعالية؛ وهو صاحب النبوة الختمية، والولاية المطلقة، وهو أكرم البرية، وأعظم الخليقة، وخلاصة الكون، وجوهرة الوجود، وعصارة دار التحقق، واللبنة الأخيرة، وصاحب البرزخية الكبرى، والخلافة العظمى.

وأما حافظه، وحارسه، فهو ذات الحق جلّ جلاله، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1].

وأما شارحه، ومبينه، فالذوات المطهرة المعصومة، من رسول الله إلى حجّة العصر عليه السلام، الذين هم مفاتيح الوجود، ومخازن الكبرياء، ومعادن الحكمة،

(١) الحجر: ٩

والوحي، وأصول المعارف، والعوارف، وأصحاب مقام الجمع، والتفصيل.

وأمّا وقت الوحي فليلة القدر، أعظم الليالي، وخير من ألف شهر، وأنور الأزمنة، وهي في الحقيقة وقت وصول الوليّ المطلق، والرسول الخاتم صلى الله عليه وآله.

مقاصد القرآن الكريم ومطالبه ومشتملاته

يمكن إجمال هذه المقاصد بما يأتي:

أولا: الدعوة إلى معرفة الله، وبيان المعارف الإلهية، من الشؤون الذاتية، والأسمائية، والصفاتية، والأفعالية؛ وأكثرها توحيد الذات، والأسماء، والأفعال؛ إذ قد ذُكر مستقصىً بعضه بالصراحة، وبعضه بالإشارة.

وليعلم أن المعارف، من معرفة الذات إلى معرفة الأفعال، قد ذكرت في هذا الكتاب الجامع الإلهي على نحو تدركه كل طبقة على قدر استعدادها، فعلماء الظاهر، والمحدثون، والفقهاء رحمهم الله يبيّنون، ويفسّرون آيات التوحيد الشريفة، على نحو يخالف، ويباين، تفسير أهل المعرفة، وعلماء الباطن.

ويرى الكاتب أنّ كِلا التفسيرين صحيح في محله، لأن القرآن هو شفاء الأمراض الباطنية، يعالج كل مريض على نحو خاص.

ثانيًا: الدعوة إلى تهذيب النفوس، وتطهير البواطن من أرجاس الطبيعة، وتحصيل السعادة؛ وبالجملة، كيفية السير، والسلوك إلى الله؛ وهذا المطلب منقسم على شعبتين مهمتين:

إحداهما: التقوى بجميع مراتبها، المندرج فيها الإِعراض المطلق عما سوى الله.

والأخرى: الإيمان بتمام المراتب، والشؤون، المندرج فيه الإقبال على الحق، والرجوع، والإنابة إلى ذاته المقدسة؛ وهذا من المقاصد المهمة لهذا الكتاب الشريف، وأكثر مطالبه ترجع إلى هذا المقصد، إما بلا واسطة، وإما بالواسطة.

ثالثا: قصص الأنبياء، والأولياء، والحكماء؛ وكيفية تربية الحق ايّاهم، وتربيتهم الخلق؛ فإن في تلك القصص فوائد لا تحصى، وتعليمات كثيرة؛ وفيها من المعارف الإلهية، والتعليمات، وأنواع التربية الربوبية، المذكورة، والمرموزة، ما يحيّر العقل.

إنّ ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام، وكيفية سيرهم، وسلوكهم، وكيفية تربيتهم عباد الله، ومواعظهم، ومجادلاتهم الحسنة، من أعظم أبواب المعارف، والحكم، وأعلى أبواب السعادة والتعاليم، قد فتحها الحق (تعالى وجلّ مجده) على عباده، فكما أن لأرباب المعرفة، وأصحاب السلوك منها حظا وافرا، ونصيبا كافيا، لسواهم أيضا نصيب واف، وسهم غير محدود. فمثلا أهل المعرفة يدركون من الكريمة الشريفة ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾[1] إلى آخر الآيات كيفية سلوك إبراهيم عليه السلام،

(١) الأنعام: ٧٦

وسيره المعنوي، ويعلمون طريق السلوك إلى الله، والسير إلى جنابه، وحقيقة سير الأنفس، والسلوك المعنوي، من منتهى ظلمة الطبيعة، التي عبّر عنها في ذلك المسلك بـ ﴿جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾، إلى إلقاء مطلق الإنّيّة والأنانية، وترك النفسانية، وعبادة النفس، والوصول إلى مقام القدس، والدخول في محفل الأنس. و﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[1] إشارة إلى ذلك في هذا المسلك؛ والسائرون يدركون منها السير الآفاقي، وكيفية تربية خليل الرحمن أمّته، وتعليمه إيّاهم.

وعلى هذا المنوال سائر القصص والحكايات، مثل قصة آدم، وإبراهيم، وموسى، ويوسف، وعيسى، وعلامات موسى مع الخضر؛ فإن إفادات أهل المعارف والرياضات والمجاهدات متفاوتة مع غيرهم.

رابعًا: الحكم والمواعظ لذات الحق المقدسة، إذ دعا العباد بلسان قدرته بما يناسب الدعوة، إلى المعارف الإلهية، والتوحيد، والتنزيه، كسورة التوحيد المباركة، وأواخر سورة الحشر، وأوائل الحديد، وسائر موارد الكتاب الشريف الإلهي؛ ولأصحاب القلوب، والسوابق الحسنى، من هذه القسمة حظوظ لا تحصى؛ فمثلا أصحاب المعارف يفيدون من الكريمة المقدسة: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

(١) الأنعام: ٧٩

﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[1]، قرب النافلة والفريضة؛ في حين يفيد السائرون الخروج بالبدن، والهجرة، إلى مكة، أو إلى المدينة، مثلا.

خامسًا: أحوال الكفار، والجاحدين، والمخالفين للحق، والحقيقة، والمعاندين للأنبياء، والأولياء عليهم السلام؛ وبيان كيفية عواقب أمورهم، وكيفية بوارهم، وهلاكهم، كقضايا فرعون، وقارون، ونمرود، وشدّاد، وأصحاب الفيل، وغيرهم من الكفرة والفجرة؛ ففي كل واحدة منها مواعظ، وحكم، بل معارف لأهلها.

سادسًا: قضايا غزوات رسول الله صلى الله عليه وآله، فإن فيها مطالب شريفة، منها كيفية مجاهدات أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله لإيقاظ المسلمين من نوم الغفلة، وبعثهم للمجاهدة في سبيل الله، وإعلاء كلمة الحق، وإماتة الباطل.

سابعًا: بيان قوانين ظاهر الشريعة، والآداب، والسنن الإلهية.

ثامنًا: أحوال المعاد، وبراهين إثباته، وكيفية العذاب، والعقاب، والجزاء، والثواب، وتفاصيل الجنة، والنار، والتعذيب، والتنعيم.

تاسعًا: الاحتجاجات والبراهين التي أقامها الحق تعالى بنفسه، لإثبات المطالب الحقة، والمعارف الإلهية، مثل الاحتجاج على إثبات الحق، والتوحيد، والتنزيه، والعلم، والقدرة، وسائر الأوصاف الكمالية.

---

(١) النساء: ١٠٠

طريق الإفادة من القرآن الكريم

بعقيدتي، أنا الكاتب، أنه لم يُكتب إلى الآن تفسير لكتاب الله، لأنّ معنى التفسير على نحو كلّي، هو أن يكون شارحا لمقاصد الكتاب المفسّر، وبيان منظور صاحب الكتاب. هذا الكتاب الشريف، الذي هو بشهادة الله تعالى كتاب الهداية، والتعليم، ونور طريق سلوك الإنسانية، يلزم المفسّر أن يعلّم المتعلم في كل قصّة من قصصه، بل في كل آية من آياته، جهة الاهتداء إلى عالم الغيب، وحيثية الهداية إلى طريق السعادة، وسلوك طريق المعرفة، والإنسانية.

فكم في قصة آدم، وحواء، وأخبارهما مع إبليس، من ابتداء خلقهما، إلى ورودهما الأرض، التي ذكرها الحق تعالى مكررة في كتابه، من المعارف، والمواعظ، مذكورة فيها، ومرموز إليها؛ وكم فيها من معايب النفس، وكمالاتها، ومعارفها؛ وكم من أخلاق إبليس موجودة فيها، ونحن عن ذلك غافلون.

وبالجملة، كتاب الله هو كتاب المعرفة، والأخلاق، والدعوة إلى السعادة، والكمال؛ وكتاب التفسير لا بد من أن يكون كتابا عرفانيا، وأخلاقيا، ومبيّنا لسائر جهات الدعوة إلى السعادة التي في القرآن. إنّ المفسّر الذي يغفل عن هذه الجهة، أو يصرف عنها النظر، أو لا يهتم بها، قد غفل عن مقصود القرآن، والمنظور الأصلي لإنزال الكتب، وإرسال

الرسل؛ وهذا هو الخطأ الذي حرم الأمة الاسلامية منذ قرون، من الإفادة من القرآن الشريف، وسدّ طريق الهداية على الناس، فلا بد لنا من أن نأخذ المقصود من تنزيل هذا الكتاب من هذا الكتاب نفسه، مع قطع النظر عن الجهات العقلية البرهانية التي تفهمنا المقصد؛ فمصنف الكتاب أعرَف بمقصده، وهو الذي قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[١]. فعرّف هذا الكتاب بأنه كتاب الهداية.

وبالجملة، ليس مقصودنا من هذا البيان انتقاد التفاسير؛ فإن كل مفسر قد تحمّل المشاق الكثيرة، حتى صنف كتابا شريفا، فلله درّهم، وعلى الله أجرهم، بل مقصودنا هو أنه لا بد من أن يفتح للناس طريق الإفادة من هذا الكتاب الشريف الذي هو الكتاب الوحيد في السلوك إلى الله، وأعظم وسيلة للربط بين الخالق، والمخلوق، والعروة الوثقى، والحبل المتين، للتمسّك بعزّ الربوبية؛ فصاحب هذا الكتاب ليس هو السكاكي[٢]، والشيخ[٣]، وسيبويه[٤]. هذا الكتاب ليس للإعجاز فقط، وللدّلالة على

(١) البقرة: ٢

(٢) هو أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد الخوارزمي المعتزلي الحنفي الملقب سراج الدين السكاكي صاحب كتاب (مفتاح العلوم) الذي لخّص القسم الثالث منه خطيب دمشق وشرحه التفتازاني بالمطوّل والمختصر توفي سنة ٧٢٦

(٣) هو أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي عماد الشيعة ورافع أعلام الشريعة توفي سنة ٤٦٠

(٤) هو أبو الحسن أو ابو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي البيضاوي العراقي البصري النحوي المشتهر كلامه وكتابه في الآفاق توفي حدود سنة ١٨٠

صدق النبي الأكرم، بل هو كتاب إحياء القلوب بالحياة الأبدية العلمية، والمعارف الإلهية؛ فالمفسّر لابد من أن يعلم الشؤون الإلهية، ويرجع الناس إلى تفسيره لتعلّم الشؤون الإلهية، حتى تتحصل الإفادة منه ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[1]. فأي خسران أعظم من أن نقرأ الكتاب الإلهي منذ ثلاثين، أو أربعين سنة، ونراجع التفاسير، ونحرم مقاصده، ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[2].

الأدب الثاني: رفع الموانع والحجب بين المستفيد والقرآن الكريم

هذه الحجب كثيرة، منها:

أولا: حجاب رؤية النفس، فيرى المتعلم نفسه مستغنية، أو غير محتاجة للإفادة، وهذا من أصول مكائد الشيطان، إذ يزيّن للإنسان الكمالات الموهومة، ويرضي الإنسان، ويقنعه بما فيه، ويسقط من عينه كل شيء سوى ما عنده؛ كأن يقنّع أهل التجويد بذاك العلم الجزئي، ويزيّنه في أعينهم، إلى حدّ يسقط سائر العلوم من أعينهم، ويحرمهم فهم الكتاب النوراني الإلهي؛ ويشغل أهل التفاسير المتعارفة بوجوه القراءات، والآراء المختلفة لأرباب اللغة، ووقت النزول، وشأنه؛ فعلى المستفيد أن يخرق جميع هذه الحجب،

(١) الإسراء: ٨٢

(٢) الأعراف: ٢٣

وينظر إلى القرآن من ورائها، ولا يتأخر عن قافلة السالكين.

إنّ موسى الكليم مع ما له من المقام العظيم في النبوّة، لم يقنع بذلك المقام، ولم يتوقف في مقام علمه الشامخ، وحين لاقى شخصا كاملا (الخضر) قال له بكل تواضع وخضوع: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[1]، وصار ملازما لخدمته حتى أخذ منه العلوم التي لابد من أخذها.

وإبراهيم عليه السلام لم يقنع بمقام شامخ الإيمان، والعلم الخاص بالأنبياء، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[2]؛ فأراد أن يرتقي من مقام الإيمان القلبي إلى الاطمئنان الشهودي؛ وأعظم من ذلك أن الله تبارك وتعالى يأمر نبيّه الخاتم، وهو أعرف خلق الله، بالكريمة الشريفة: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[3].

ثانيًا: حجاب الآراء الفاسدة، والمذاهب الباطلة، وهذا قد يكون من سوء استعداد الشخص، والأغلب أنه يوجد من التبعية والتقليد. وهذا من الحجب التي حجبتنا عن معارف القرآن خاصة؛ مثلا، إذا رسخ في قلوبنا اعتقاد بالاستماع من الأب، أو الأم، أو من جهلة أهل المنبر، تكون هذه العقيدة حاجبة بيننا وبين الآيات الشريفة الإلهية؛ فإن وردت آلاف

(١) الكهف: ٦٦

(٢) البقرة: ٢٦٠

(٣) طه: ١١٤

من الآيات، والروايات، تخالف تلك العقيدة، إما أن نصرفها عن ظاهرها، وإما أن لا ننظر فيها نظر الفهم؛ مثال ذلك: وردت آيات كثيرة في لقاء الله ومعرفته، ووردت روايات كثيرة في هذا الموضوع، وكثير من الإشارات، والكنايات، والتصريحات في الأدعية، والمناجاة، للأئمة؛ ولكن بسبب نشوء عقيدة للعوام بأن طريق معرفة الله مسدود بالكلّية، ويقيسون باب معرفة الله، ومشاهدة جماله، على باب التفكر في الذات، على الوجه الممنوع، بل الممتنع؛ فإمّا أن يؤوّلوا، ويوجّهوا تلك النصوص، وإمّا ألاّ يدخلوا في هذا الميدان أصلا، ولا يعرّفوا أنفسهم المعارف التي هي قرّة عين الأنبياء، والأولياء؛ فممّا يوجب الأسف الشديد لأهل الله أن بابا من المعرفة يمكن أن يقال فيه: إنه غاية بعثة الأنبياء، ومنتهى مطلوب الأولياء، قد سدّوه على الناس، حتى عُدّ التفوّه به محض الكفر. إنّ هؤلاء يرون أنّ معارف الأنبياء، والأولياء، في ما يختص بذات الحق تعالى، وأسمائه، وصفاته، مساوية لمعارف العوام فيه.

لقد قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾[1]؛ إن مهجورية القرآن لها مراتب كثيرة، ومنازل لا تحصى، ولعلنا متصفون بالعمدة منها. أترى أننا اذا جلّدنا هذه الصحيفة الإلهية جلدا نظيفا، وقيّما؛ وعند قراءتها، أو الاستخارة بها، قبّلناها، ووضعناها

(١) الفرقان: ٣٠

على أعيننا، ما اتخذناه مهجورا؟. أترى إذا صرفنا غالب عمرنا في تجويده، وجهاته اللغوية، والبيانية، والبديعية، قد أخرجنا هذا الكتاب الشريف عن المهجورية؟. أترى إذا تعلّمنا القراءات المختلفة، وأمثالها، قد تخلّصنا من عار هجران القرآن؟. هل إذا تعلمنا وجوه إعجاز القرآن، وفنون محسّناته، قد تخلّصنا من شكوى رسول الله ؟ هيهات، فإنه ليس شيء من هذه الأمور موردا لنظر القرآن، ومنزّله العظيم. إن القرآن كتاب إلهي، وفيه الشؤون الإلهية. القرآن هو الحبل المتصل بين الخالق، والمخلوق، ولا بد من أن يوجد الربط المعنوي، والارتباط الغيبي، بتعليماته بين عباد الله ومربّيهم، إذا اتعظنا بمواعظ الله تعالى، ومواعظ الأنبياء، والحكماء، المذكورة في القرآن، فما اتّخذناه مهجورا، وإلا فالغور في الصورة الظاهرية للقرآن، إخلاد إلى الأرض، ومن وساوس الشيطان، ولا بد من الاستعاذة بالله منها.

ثالثًا: حجاب الاعتقاد بأنه ليس لأحد حق الاستفادة من القرآن الشريف، إلا بما كتبه المفسّرون، أو فهموه؛ فقد اشتبه على الناس التفكر، والتدبّر، في الآيات الشريفة، بالتفسير بالرأي، الممنوع؛ وبهذا الرأي الفاسد، والعقيدة الباطلة، جعلوا القرآن عاريا من جميع فنون الاستفادة، واتخذوه مهجورا بالكلية، حين صارت الاستفادات الأخلاقية، والإيمانية، والعرفانية، لا ربط لها بالتفسير؛ ومنها مثلا: الإفادة من قصة موسى والخضر عظمة مقام العلم، وآداب معاملة المتعلم للمعلّم، التي تبلغ من الآيات المذكورة عشرين أدبا.

رابعًا: حجاب المعاصي، والكدورات، الحاصلة من الطغيان، وعصيان رب العالمين.

إنّ لكل عمل صورة في عالم الملكوت تناسبه، وله صورة في ملكوت النفس أيضا؛ إمّا نورانية فيكون القلب مطهّرا ومنوّرا، ولائقا للتجليات الغيبية، وظهور الحقائق، والمعارف فيه، وإما أن يصير ملكوت النفس به ظلمانيًا وخبيثًا، وفي هذه الصورة يكون القلب كالمرآة المدنّسة، لا تنعكس فيها المعارف الإلهية، والحقائق الغيبية؛ ولما كان القلب في هذه الحالة يقع بالتدريج تحت سلطة الشيطان، ويكون المتصرف في مملكة الروح إبليس، فيقع السمع، والبصر، وسائر القوى في تصرف ذاك الخبيث، وينسد السمع بالكلية عن المعارف، والمواعظ الالهية، ولا ترى العين الآيات الباهرة الإلهية، وتعمى عن الحق، وآثاره، وآياته؛ ولا يتفقّه القلب في الدين، ويحرم من التفكر في الآيات، والبيّنات؛ قال الحق تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[1]. فيكون نظرهم إلى العالم كنظر الأنعام.

خامسًا: حجاب حبّ الدنيا، فيصرف القلب بواسطة تمام همّته في الدنيا، وتكون وجهة القلب تماما إلى الدنيا، ويغفل القلب بواسطة هذه المحبة عن

(١) الأعراف: ١٧٩

ذكر الله، ويعرض عن الذكر، والمذكور؛ وكلما ازدادت العلاقة بالدنيا، وأوضاعها، ازداد حجاب القلب ضخامة؛ ولعل المراد من أقفال القلوب المذكورة في الآية الشريفة: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[1]، هي هذه الأقفال، وأغلال العلائق الدنيوية، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[2]. فكما أن غير المطهّر الظاهري، ممنوع عن ظاهر هذا الكتاب، ومسّه في العالم الظاهر، تشريعا وتكليفا، كذلك ممنوع من معارفه، ومواعظه، وباطنه، وسرّه، من كان قلبه متلوثا بأرجاس التعلّقات الدنيوية، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[3]؛ فغير المتقي بحسب تقوى العامة، وغير المؤمن بحسب إيمان العامة، محروم من الأنوار الصورية لمواعظه، وعقائده الحقة؛ وغير المتقي، وغير المؤمن، بحسب سائر مراتب التقوى الخاص، وتقوى خاص الخاص، وتقوى أخصّ الخواص، محروم من سائر مراتبها.

الأدب الثالث: حضور القلب.

وقد تناولناه في آداب العبادات عامة.

---

(١) محمد: ٢٤

(٢) الواقعة: ٧٧ ــ ٧٩

(٣) البقرة: ٢

الأدب الرابع

التفكر هو أن يتجسس من الآيات الشريفة المقصد، والمقصود، ولما كان مقصد القرآن الهداية إلى سبل السلام، والخروج من جميع مراتب الظلمات إلى عالم النور، والهداية إلى طريق مستقيم، فلا بد من أن يحصّل الإنسان بالتفكر في الآيات الشريفة مراتب السلامة، من المرتبة الدانية الراجعة إلى القوى الملكية إلى منتهى النهاية فيها، وهي حقيقة القلب السليم، على ما ورد تفسيره عن أهل البيت عليهم السلام، وهو أن يلاقي الحق، وليس فيه غيره؛ وتكون سلامة القوى الملكية، والملكوتية، ضالة قارئ القرآن، فإنها موجودة في هذا الكتاب السماوي، ولا بد من أن يستخرجها بالتفكر، فإذا صارت القوى الإنسانية سالمة عن التصرّف الشيطاني، وتحصّل طرق السلامة، وعمل بها، ففي كل مرتبة من السلامة التي تحصل له، ينجو من ظلمة، ويتجلى فيه النور الساطع الإلهي قهرا، حتى إذا خلص عن جميع أنواع الظلمات، التي أولها ظلمات عالم الطبيعة، بجميع شؤونها، وآخرها ظلمة التوجّه إلى الكثرة بتمام شؤونها، يتجلى النور المطلق في قلبه، ويهديه إلى طريق الإنسانية المستقيم، وهو في هذا المقام، طريق الربّ ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

وقد وردت روايات كثيرة في خصوص التفكر في معاني القرآن،

---

(١) هود: ٥٦

والاتعاظ به، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إن هذا القرآن فيه منار الهدى، ومصابيح الدّجى؛ فليجل جال بصره، ويفتح للضياء نظره، فإن التفكر حياة قلب البصير، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور**»[١]؛ أي: كما أن الإنسان لا بد له من النور الظاهري إذا مشى في الظلمات، حتى يصان من خطر السقوط في المزلات، لابدّ له من أن يمشي في ظلمات طريق السير إلى الآخرة، وإلى الله، بالقرآن الذي هو نور الهداية، والمصباح المنير في طريق العرفان، والإيمان، كي لا يقع في المزلاّت المهلكة.

والعمدة في هذا الباب أن يفهم الإنسان ما التفكر الممدوح؟، فلا بد للإنسان من أن يطلب من القرآن المجيد الشريف سبل السلامة، ومعدن النور المطلق، والطريقة المستقيمة، ويدرك مفاد الآية الشريفة: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[٢]، ومعنى قول أمير المؤمنين عليه السلام: «**وتعلموا القرآن، فانه ربيع القلوب؛ واستشفعوا بنوره، فإنه شفاء الصدور**»[٣]؛ ولا يطلب من القرآن شفاء الأمراض الجسمانية فقط، بل يجعل عمدة المقصد شفاء الأمراض الروحانية، الذي هو مقصد القرآن، بل ما نزل القرآن لشفاء الأمراض

(١) الكافي

(٢) الإسراء: ٨٢

(٣) نهج البلاغة: ج١/ ٢١٦ مع اختلاف يسير

الجسمانية، وإن كان ذلك يحصل به؛ ولم يبعثوا الأنبياء عليهم السلام للشفاء الجسماني، وإن كانوا يشفون، فهم أطباء النفوس، والشافون للقلوب والأرواح.

الأدب الخامس: التطبيق

وهو أنه حينما يتفكر الإنسان في كل آية من الآيات الشريفة، يطبق مفادها في حاله، ويرفع نقصانه بواسطة هذا التطبيق، ويشفي أمراضه به؛ مثلا في قصة آدم الشريفة، يتفكر في سبب طرد الشيطان عن جناب القدس مع تلك السجدات، والعبادات الطويلة، فيطهّر نفسه منه، لأن مقام القرب الإلهي مقام المطهّرين، فمع الأوصاف، والأخلاق الشيطانية، لا يمكن القدوم إلى ذلك الجناب الرفيع؛ ويفيد من الآيات الشريفة أن مبدأ عدم سجود إبليس هو رؤية النفس، والعجب، فطبّل: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾[1]؛ ويتفكر في سبب مزيّة آدم، وأفضليته على الملائكة، فنتصف نحن أيضا بمقدار الطاقة بذاك السبب، الذي هو تعليم الأسماء، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾[2]، والمرتبة العالية من تعليم الأسماء هو التحقق بمقام أسماء الله؛ كما أن المرتبة العالية من الإحصاء، الذي هو في الرواية الشريفة[3]: **أن لله تسعا**

(١) الأعراف: ١٢

(٢) البقرة: ٣١

(٣) ينظر: الخصال: ٥٩٣

وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة، هو التحقق بحقيقتها التي تنيل الإنسان جنة الأسماء.

مثلا آخر: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1]. فلا بد للسالك من أن يلاحظ هل هذه الأوصاف الثلاثة منطبقة عليه؟، وهل يجِلُ قلبه إذا ذكر الله، ويخاف؟ وإذا تليت عليه الآيات الشريفة الإلهية يزداد نور الإيمان في قلبه؟ وهل اعتماده، وتوكله على الحق تعالى؟ أو أنه من كل هذه الخواص محروم ؟؛ فإن أراد أن يفهم أنه من الحق تعالى خائف، وقلبه من خوفه وجل، فلينظر إلى أعماله؛ الإنسان الخائف لا يتجاسر في محضر الكبرياء على مقامه المقدس، ولا يهتك الحرمات الإلهية في حضور الحق، وإذا قوي الإيمان بتلاوة الآيات الإلهية، يسري نور الإيمان إلى المملكة الظاهرية أيضا، فلا يمكن أن يكون القلب نورانيا، ولا يكون اللسان، والكلام، والعين، والنظر، والسمع، والاستماع، نورانية. فالبشر النوراني هو الذي تكون جميع قواه الملكية، والملكوتية، منيرة؛ وفضلا عن هداية نفسه إلى السعادة، والطريق المستقيم، يضيئ لسائر الخلق، ويهديهم إلى طريق الإنسانية.

---

(١) الأنفال: ٢

إنّ الميزان في الاستقامة، والاعوجاج، والشقاوة، والسعادة، هو أن يكون مستقيما، وصحيحا، في ميزان كتاب الله؛ ولما كان خلق رسول الله هو القرآن، فاللازم له أن يجعل خلقه موافقا للقرآن، حتى يكون مطابقا لخلق الوليّ الكامل؛ قال رسول الله: «**أنا أول وافد على العزيز الجبّار يوم القيامة، وكتابه، وأهل بيتي، ثم أمّتي ثم أسألهم: ما فعلتم بكتاب الله، وبأهل بيتي؟**»[1]. وفي حديث آخر: «**فيقول الجبار: وعزتي، وجلالي، وارتفاع مكاني، لأكرمن اليوم من أكرمك، ولأهينن من أهانك**»[2]؛ وليعلم أنه إذا لم نكن نحيي أحكام القرآن، ومعارفه، بالعمل بها، والتحقق بحقيقتها، لا نستطيع أن نجيب رسول الله في ذلك اليوم، فأي إهانة أعظم من أن تنبذ مقاصد القرآن، ودعواته، وراء الظهر؛ فليس إكرام القرآن، وأهله، وهم أهل بيت العصمة، بتقبيل جلد القرآن، أو ضرائحهم المقدسة فقط، بل التقبيل هذا مرتبة ضعيفة من الاحترام، والتكريم، وإذا عملنا بأوامره، وأوامرهم فهذا الاحترام مقبول، والا فهو شبيه بالاستهزاء، واللعب.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٦٠٠، باب: في تمثل القران، ح٤

(٢) الكافي: ج٢، ص٦٠٢، باب: في تمثل القران، ح١٤٦

الفصل الأول

في التطهير والوضوء واللباس والمكان والاستقبال

أولًا: في التطهيرات الثلاثة

لما كانت حقيقة الصلاة هي العروج إلى مقام القرب، والوصول إلى مقام حضور الحق جلّ وعلا، فللوصول إلى المقصد الأعلى، والغاية القصوى، يلزم طهارات غير الطهارات الظاهرية. وأشواك هذا الطريق، وموانع هذا العروج، قذارات لا يتمكن السالك مع اتصافه بإحداها من الصعود إلى هذه المرقاة، والعروج بهذا المعراج؛ ويلزم السالك إلى الله في بداية الأمر رفع الموانع كي يتّصف بالطهارة، ويتيسّر له الطهور الذي هو من عالم النور؛ وما دام السالك لم يتطهّر من جميع القذارات الظاهرية، والباطنية، والعلنيّة، والسرية، لا يكون له أي حظ من المحضر والحضور؛ ولذلك مراتب ثلاثة، هي:

المرتبة الأولى: تطهير الآلات، والقوى الظاهرية للنفس الملوثة بلوث معصية وليّ النعم، بماء التوبة النصوح، الطاهر، الطهور.

المرتبة الثانية: تخلية الباطن من أرجاس الأخلاق الفاسدة، التي فسادها أكثر، وعلاجها أصعب، وهي عند أصحاب الارتياض أهم؛ لأنه ما دام الخلق الباطني للنفس فاسدا، والقذارات المعنوية محيطة بها، لا تليق بمقام القدس، وخلوة الأنس.

المرتبة الثالثة: تطهير القلب، من التعلّق بغير الحق، والتوجّه إلى نفسه، وإلى العالم؛ فمنشأ قذارات القلب جميعا حب الدنيا، الذي هو رأس كل خطيئة، وحبّ النفس الذي هو أمّ الأمراض؛ وما دامت جذور هذه المحبة في قلب السالك، لا يحصل فيها أثر من محبة الله؛ ومادام في قلب السالك بقايا من هذه المحبة لم يكن سيره إلى الله بل إلى النفس، والدنيا، والشيطان

إنّ التطهير من حب النفس، والدنيا، هو أول مرتبة تطهير في السلوك إلى الله؛ لأن السلوك قبل هذا التطهير ليس سلوكا، وإنما يطلق ذلك على سبيل المسامحة وإذا لم يكن لإبليس، من أول فطرة الإنسان إلى آخرها، تصرّف فيها، فهو إنسان إلهي لاهوتي، وهو من قرنه إلى قدمه نور، وطهارة، وسعادة؛ فقلبه نور الحق، ولا يتوجّه لغير الحق؛ وقواه الباطنية، والظاهرية، نورانية، وطاهرة، ولا يتصرف فيها سوى الحق، وليس لإبليس فيها حظ، ولا لجنوده فيها تصرّف. مثل هذا الموجود الشريف طاهر مطلقا، ونور خالص، وما تقدم من ذنبه، وما تأخّر، مغفور له، وهو صاحب الفتح المطلق، وواجد مقام العصمة الكبرى بالأصالة، وسائر المعصومين واجدون لذاك المقام تبعا لتلك الذات المقدسة، وهو صاحب مقام الخاتمية، الذي هو الكمال على الإطلاق.

وإذا تلوّث نور الفطرة بالقذارات الصورية، والمعنوية، فبمقدار التلوّث يبعد عن بساط القرب، ويُهجّر من حضرة الأنس، حتى يصل

إلى مقام ينطفئ فيه نور الفطرة بالكلّية، وتصير المملكة شيطانية كلها؛ ويكون ظاهرها، وباطنها، وسرّها، وعلنها، في تصرّف الشيطان؛ فيكون الشيطان قلبه، وسمعه، وبصره، ويده، ورجله؛ وتكون جميع أعماله شيطانية؛ وإذا وصل أحد إلى هذا المقام، فهو الشقّي المطلق، ولا يرى وجه السعادة أبدا، وبين هاتين المرتبتين مقامات ومراتب لا يحصيها إلا الله؛ ومن كان إلى أفق النبوة أقرب، فهو من أصحاب اليمين؛ ومن كان إلى أفق الشيطان أقرب فهو من أصحاب الشمال.

أ) في الآداب القلبية للتوجه إلى الماء للطهارة

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إذا أردت الطهارة، والوضوء، فتقدم إلى الماء تقدمك إلى رحمة الله؛ فإن الله قد جعل الماء مفتاح قربته، ومناجاته، ودليلًا على بساط خدمته، وكما أن رحمة الله تطهّر ذنوب العباد، كذلك النجاسات الظاهرة يطهرها الماء لا غير**، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾[1]. وقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾[2]؛ فكما يحيي به كل شيء من نعيم الدنيا، كذلك برحمته،

(١) الفرقان: ٤٨

(٢) الأنبياء: ٣٠

وفضله، جعل حياة القلوب الطاعات. وتفكر في صفاء الماء، ورقّته، وطهارته، وبركته، ولطيف امتزاجه بكل شيء، واستعمله في تطهير الأعضاء، التي أمرك الله بتطهيرها، وأتِ بآدابها في فرائضه، وسننه، فإن تحت كل واحدة منها فوائد كثيرة، فإذا استعملها بالحرمة انفجرت لك عيون فوائده عن قريب؛ ثم عاشر خلق الله كامتزاج الماء بالأشياء، يؤدي كل شيء حقّه، ولا يتغير معناه، معتبرا لقول رسول الله ﷺ: «**مثل المؤمن المخلص الخالص كمثل الماء، ولتكن صفوتك مع الله تعالى في جميع طاعتك كصفوة الماء حين أنزله من السماء، وسمّاه طهورا؛ وطهّر قلبك بالتقوى، واليقين، عند طهارة جوارحك بالماء**»[1].

في هذا الحديث لطائف، ودقائق، وإشارات، وحقائق، تحيي قلوب أهل المعرفة، وتعطي الأرواح الصافية لأصحاب القلوب حياة جديدة؛ هي:

أولا: شبّه الماء، بل أوّله، برحمة الحق؛ ولما كان تجلّي الرحمة الواسعة الإلهية في الماء الملكي الظاهري أكثر من سائر الموجودات الدنيوية، جعله الله تعالى لتطهير القذارات الصورية، بل ماء الرحمة للحق تعالى إذا نزل، وظهر، في كل نشأة من نشآت الوجود، وفي كل مشهد من مشاهد

(١) مصباح الشريعة: ٤٤:

الغيب، والشهود، يطهّر ذنوب عباد الله على وفق تلك النشأة، وبما يناسب ذلك الحال؛ فعلم أن الحق تعالى جعل الماء مفتاح قربه، ودليل بساط رحمته. وأشار عليه السلام في هذا الحديث الشريف إلى مراتب الطهارة بالطريق الكلية وبيّن أربع مراتب كليّة، هي:

المرتبة الأولى: تطهير الأعضاء، فيلزم أهل المراقبة، والسلوك إلى الله، أن لا يتوقّفوا عند صور الأشياء، وظواهرها، بل لابدّ من أن يجعلوا الظاهر مرآة للباطن؛ فإذا تلبست أعضاؤهم بالسنن، والفرائض الإلهية، وآدابها، تظهر فوائدها الباطنية بالتدريج، وتنفجر عيون الأسرار الإلهية، وتنكشف لهم لمحة من أسرار العبادة، والطهارة.

المرتبة الثانية: قال عليه السلام: **ثم عاشر خلق الله كامتزاج الماء بالأشياء، يؤدي كل شيء حقه، ولا يتغّير عن معناه، معتبرا لقول رسول الله** صلى الله عليه وآله: «**مثل المؤمن المخلص (الخالص) كمثل الماء**»[1]؛ فبيّن عليه السلام ما يرتبط بمعاملة الإنسان خلق الله؛ وهذا حكم جامع يبيّن كيفية معاشرة السالك للمخلوق.

المرتبة الثالثة: ذكر عليه السلام كيفية معاملة السالك الحق تعالى، يقول: «**ولتكن صفوتك مع الله في جميع طاعتك كصفوة الماء حين أنزله من**

(١) مصباح الشريعة: ٤٤

السماء وسمّاه طهورا»؛ يعني يلزم للسالك إلى الله أن يكون خالصا من تصرف الطبيعة، ولا يكون لكدورتها، وظلمتها، طريق إلى قلبه، وتكون جميع عباداته خالية عن جميع الشرك الظاهري، والباطني.

وبعد هذا بين عليه السلام الحكم الأخير، وهو وظيفة أهل الرياضة، والسلوك وقال: «**وطهّر قلبك بالتقوى، واليقين، عند تطهير جوارحك بالماء**» وفي هذا إشارة إلى مقامين شامخين لأهل المعرفة:

أحدهما: التقوى، وكماله ترك غير الحق.

والآخر: اليقين، وكماله مشاهدة حضور المحبوب.

ب) في الطهور وهو إما الماء وهو الأصل في هذا الباب، وإما الأرض

للإنسان السالك سبيل الوصول إلى المقصد الأعلى، ومقام القرب الربوبي، طريقان على نحو كلي:

أحدهما: وله مقام الكلّية، والأصالة، وهو السير إلى الله بالتوجّه إلى مقام الرحمة المطلقة، وخصوصا الرحمة الرحيمية، وهي رحمة توصل كل موجود إلى كماله اللائق به، فلابد للسالك إلى الله من أن يرى التطهير بماء الرحمة صورة لإفادته من الرحمة الإلهية النازلة، وما دامت الاستفادة له ميسورة، لابد من أن يقوم بأمرها.

والآخر: إذا قصرت يده عنها بسبب القصور الذاتي، أو تقصيره،

وبسبب فقد ماء الرحمة، لم يكن له بدّ من التوجّه بذلّته، ومسكنته، وفقره، وفاقته؛ فإذا جعل ذلّة عبوديته نصب عينيه، وتوجّه باضطراره الذاتي، وفقره الذاتي، وإمكانه الذاتي، وخرج من التعزز، والغرور، وحب النفس، ينفتح له باب آخر من الرحمة، وتبدل بأرض الطبيعة أرض الرحمة البيضاء، ويصير التراب أحد الطهورين، ويصير موردا لترحم الحق تعالى وتلطفه؛ وكلما قوي في الإنسان النظر إلى ذلّة نفسه، كان موردا للرحمة أكثر.

ت) في نبذة من آداب الوضوء الباطنية والقلبية

ورد عن الامام الرضا عليه السلام: «**إنما أمر بالوضوء، ليكون العبد طاهرا، إذا قام بين يدي الجبّار، وعند مناجاته ايّاه مطيعا له فيما أمر، نقيّا من الأرجاس والنجاسة، مع ما فيه من ذهاب الكسل، وطرد النعاس، وتزكية الفؤاد، للقيام بين يدي الجبّار**»[1]؛ فكيف إذا كان القلب معدنا للكثافات، ومبتلىً بالقاذورات المعنوية، التي هي أصل القذارات، مع أن في الرواية: «**إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم بل ينظر إلى قلوبكم**»[2]؛ ومن جعله عليه السلام تزكية القلب في هذا الحديث الشريف من فوائد الوضوء،

(١) وسائل الشيعة: ج١، ص، ٣٦٧ ح٩٦٨

(٢) الامالي: ٥٣٦

يعلم أن للوضوء باطنا تكون به تزكية الباطن، ويعلم أيضا الرابطة بين الظاهر والباطن، والشهادة والغيب؛ ويُفاد أيضا أن الطهور الظاهري، والوضوء الصوري، من العبادات، وإطاعة للرب؛ ومن هذه الجهة الطهور الظاهر موجب للطهور الباطن، ومن الطهارة الصورية تحصل تزكية الفؤاد.

ثم بيّن الرضا عليه السلام وجه اختصاص الأعضاء المخصوصة للوضوء، فقال: «**وانّما وجب على الوجه، واليدين، والرأس، والرجلين، لأن العبد إذا قام بين يدي الجبار، فإنما يكشف من جوارحه، ويظهر ما وجب به الوضوء، وذلك أنه بوجهه يسجد، ويخضع، وبيده يسأل، ويرغب، ويرهب، ويتبتّل، وبرأسه يستقبله في ركوعه وسجوده، وبرجليه يقوم، ويقعد**»

وحاصل ما قاله عليه السلام: لهذه الأعضاء دخل في عبودية الحق تعالى، والعبودية تظهر من هذه الأعضاء، لذا وجب تطهيرها.. وبعد هذا بيّن عليه السلام الأمور التي تظهر من هذه الأعضاء، وبهذا فتح باب الاعتبار، والاستفادة لأهلها، وأرشد أهل المعارف إلى أسرارها، بأن ما هو محل للعبودية في محضر الحق تبارك لا بد من أن يكون طاهرا، ومطهرا؛ والأعضاء، والجوارح الظاهرية، التي ن لها حظ ناقص من تلك المعاني، لا تليق لذلك المقام، من دون طهارتها؛ والخضوع ليس من صفات

الوجه على الحقيقة؛ والسؤال، والرغبة، والرهبة، والتبتل، والاستقبال، ليست من شؤون الأعضاء الحسيّة، ولكن لأن هذه الأعضاء مظاهر تلك الأمور لزم تطهيرها، فعلى هذا إنّ تطهير القلب الذي هو محل حقيقي للعبودية، ومركز واقعي لتلك المعاني، يكون ألزم، ومن دون تطهير القلب، لو غسلت الأعضاء الصورية بسبعة أبحر ما تطهّرت، ولا لاقت لذلك المقام، بل يكون للشيطان فيها تصرّف؛ ويكون المرء مطرودا من حضرة العزّة.

ث) في الغسل وآدابه القلبية

الجنابة هي الفناء في الطبيعة، والغفلة عن الروحانية، والغاية القصوى لكمال السلطنة الحيوانية، والبهيمية، والدخول في أسفل السافلين؛ والغسل هو التطهير من هذه الخطيئة، والرجوع عن حكم النفس التي فنيت في الطبيعة، وابتليت بغرور الشيطان.

وما دام لم يطهر من هذه الجنابة بانغماسه في ماء الرحمة للحق تعالى، أو تطهيره التام بذاك الماء، الذي يجري عن ساق العرش الرحماني، والخالص عن التصرف الشيطاني، لا يليق للصلاة، التي هي حقيقة معراج القرب؛ فإنه لا صلاة إلا بطهور، «**جاء نفر من اليهود إلى رسول الله ﷺ فسأله أعلمهم عن مسائل، وكان فيما سأله أن قال: لأي شيء أمر الله تعالى بالاغتسال من الجنابة ولم يأمر بالغسل من الغائط و البول ؟ فقال**

رسول: **إن آدم لما أكل من الشجرة دبّ ذلك في عروقه، وشعره، وبشره؛ فإذا جامع الرجل أهله خرج الماء من كل عرق وشعرة في جسده، فأوجب الله عز وجل على ذريّته الاغتسال من الجنابة إلى يوم القيامة»**[1].

فأنت يا ابن آدم وقد جعلت بذرا للّقاء، وخلقت للمعرفة، واصطفاك الله تعالى لنفسه، وخمّرك بيدي جماله، وجلاله؛ وجعلك مسجودا للملائكة، ومحسودا لإبليس؛ إذا أردت أن تخرج عن جنابة أبيك، الذي هو أصلك، وتليق للقاء حضرة المحبوب، وتحصل استعدادا للوصول إلى مقام الأنس، وحضرة القدس، فلا بد لك من أن تغسل باطن قلبك، الذي هو محفل لجناب الجميل، وجمال الجليل، عن حب الدنيا، وشؤونها الخبيثة، التي هي رجز الشيطان، فإن جنة لقاء الحق تعالى، محل الأطهار، ولا يدخل الجنة إلا الطيب.

ج) في الآداب الباطنية لإزالة النجاسة والتطهير من الخبائث

إن إزالة الحدث يتم بالخروج من بيت النفس بالكلية، وما دام في العبد بقايا من نفسه، فهو محدث للحدث الأكبر؛ والعابد والمعبود فيه هو الشيطان والنفس. وما طهُر من الحدث الأكبر، الذي هو عينيّة العبد، فإذا تطهّر من هذا الحدث بالكلية، كان العابد والمعبود هو الحق تعالى،

(١) الامالي: ص٢٥٨

وتحصل نتيجة قرب النافلة؛ أي: **كنت سمعه وبصره**[١].. فمن هذه الجهة يلزم غسل جميع البدن في الطهارة من الحدث الأكبر، لأنه مادامت عينيّة العبد باقية بوجه من الوجوه، لم يرتفع الحدث، فإن تحت كل شعرة جنابة، فالحدث من القذارات المعنوية، وتطهيره من الأمور الغيبية الباطنية، وهو نور، لكن الوضوء نور محدود، والغسل نور مطلق، وأيّ وضوء أنقى من الغسل.

إن الشيطان رأى نفسه، ورأى ناريته، وقال: ﴿أَنَاْ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾[٢]، وهذا الإعجاب بالنفس صار سببا لعبادة نفسه، وتكبره، وتحقير آدم، وقال: خلقته من طين، وقاس قياسا باطلا، ولم ير حسن آدم، وكمال روحانيته، بل رأى ظاهره، ومقام طينته، وترابيته؛ ورأى من نفسه مقام ناريته، وغفل عن الشرك، وحب النفس، ورؤيتها، فصار حب النفس حجابا لرؤية نقصه، وشهود عيوبه؛ وصارت هذه الرؤية للنفس، والحب لها، سببا للتعبد لنفسه، والتكبر، والتظاهر، والرياء، والاستقلال في الرأي، والعصيان، وأبعد عن معراج القدس إلى تيه الطبيعة المظلمة. ؛ فاللازم للسالك إلى الله أن يطهّر نفسه من أصول الرذائل، والأرجاس الباطنية الشيطانية، عند تطهيره الأرجاس الصورية، وأن يغسل المدينة الفاضلة

(١) بحار الأنوار، ج٥، ص: ٢٠٧، ح: ٤١

(٢) الأعراف: ١٢

بماء رحمة الحق، والارتياض الشرعي، ويصفّي قلبه الذي هو محلّ لتجلّي الحق، ويخلع نعلي حبّ الجاه، والشرف، كي يليق للدخول في الوادي المقدس الأيمن، ويكون قابلا لتجلي الرب.

وعلى السالك، وطالب الحق، أن يبرئ نفسه من الإفراط، والتفريط، من بعض جهلة أهل التصوّف، وبعض غفلة أهل الظاهر، حتى يمكن السير إلى الله.

إن طائفة منهم تعتقد أن العلم والعمل الظاهري القالبي حشو، وهما للجهّال والعوام، أما الذين هم أهل السر والحقيقة، وأصحاب القلوب، وأرباب السابقة الحسنى، فلا يحتاجون إلى هذه الأعمال؛ وأن الأعمال القالبية من أجل حصول الحقائق القلبية، والوصول إلى المقصد؛ فإذا وصل السالك إلى المقصد، كان الاشتغال بالمقدمات تبعيد له.

والطائفة الثانية وقعت في جانب التفريط، فأنكرت جميع المقامات المعنوية، والأسرار الإلهية، ونسبوها إلى التخيلات، والأوهام.

والحق أن كلتا الطائفتين قد تجاوزت الحد، ووقعت في الإفراط، أو التفريط؛ إنّ حدّ الاعتدال، الذي هو الصراط المستقيم، هو أن المناسك الصورية، والعبادات القالبية، ليست لحصول الملكات الكاملة الروحانية، والحقائق القلبية فقط، بل هي إحدى ثمراتها. ولعل من المراتب والبواطن للحديث الشريف الذي يحكي عن لسان الحق تعالى

شأنه أن الله قال: «**وأنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها اسما من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته**»[١]؛ فلعلها هي قطع الطبيعة، التي هي أم الأرواح، عن موطنها الأصلي، ووصلها هو ارتياضها، وإرجاعها إلى موطن العبودية.

وفي الحديث عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «**استوصوا بعمّتكم النخلة خيرا، فإنها خلقت من طينة آدم**[٢]»؛ وهذا الحديث يشير إلى الرحم الذي ذكرناه.

والعارف بالله، والعالم بالمقامات، لابد له من أن يراعي جميع الحقوق الباطنية والظاهرية؛ ويوصل إلى كل صاحب حق حقه، ويطهّر نفسه من الغلوّ، والتقصير، والإفراط، والتفريط، ويزيل عن نفسه قذارة إنكار صورة الشريعة، الذي هو في الحقيقة تحديد؛ ويزيل عن نفسه خباثة إنكار باطن الشريعة الذي هو تقييد؛ وكلاهما من الوساوس الشيطانية، حتى يتيسّر له طريق السير إلى الله، والوصول إلى المقامات المعنوية. فإزالة أخباث الأوهام الفاسدة المانعة من القرب إلى الله، ومن معراج المؤمنين إحدى مراتب إزالة الخبث.

إن باطن عالم الطبيعة هو القذارة؛ والكثافة، والقذارة في الرؤيا، التي هي باب من المكاشفة، تعبير عن الدنيا والمال، وفي المكاشفة العلوية:

---

(١) عوالي اللآلي: ١/٣٦٢، الباب الأول، المسلك الثاني. ح: ٤٥

(٢) المحاسن: ج٢، ص٥٢٨

«الدنيا جيفة وميتة»[1]. فالمؤمن كما يفرغ نفسه عن الأثقال، والفضولات الطبيعية، ويريح المدينة الطبيعية من أذاها، كذلك يريح قلبه من التعلق، والاشتغال بها؛ ويرفع عن القلب ثقل حب الدنيا، والجاه، ويريح، ويفرغ المدينة الفاضلة الروحانية منها.

ثانيًا: في آداب اللباس

أ) في آداب مطلق اللباس

النفس الناطقة الإنسانية ذات نشآت، عمدتها ثلاث:

الأولى: النشأة الملكية الدنيوية الظاهرة؛ ومظهرها الحواس الظاهرة، والقشر الأدنى لها هو الحواس الملكيّة.

الثانية: النشأة البرزخية المتوسطة؛ ومظهرها الحواس الباطنية، والبدن البرزخي، والقالب المثالي.

الثالثة: النشأة الغيبية الباطنية؛ ومظهرها القلب، والشؤون القلبية.

وتسري الآثار والخواص والانفعالات من مرتبة إلى أخرى، فمثلا إذا أدركت حاسّة البصر شيئا يقع منه أثر في الحسّ البصري البرزخي، وآخر في البصر الباطني القلبي، يناسبان تلك النشأة، وهكذا الآثار القلبية تظهر في النشأتين الأخيرتين؛ فمن هذه الجهة يكون لجميع

(١) مصباح الشريعة: ص١٣٨

الآداب الصورية الشرعية في الباطن أثر، بل آثار، ولكل من الأخلاق الجميلة التي هي من حظوظ مقام برزخية النفس آثار، في الظاهر والباطن، ولكل من المعارف الإلهية، والعقائد الحقّة، في النشأتين: البرزخية، والظاهرة، آثار.

فمثلا الإيمان بأن المتصرف في مملكة الوجود، وعوالم الغيب، والشهود، هو الحق تعالى، وليس لسائر الموجودات فيها تصرّف، إلا التصرّف الأدنى الظلّي، يوجب كثيرا من الكمالات النفسانية، والأخلاق الفاضلة الإنسانية، مثل: التوكل، والاعتماد على الحق، وقطع الطمع من المخلوق، التي هي أمّ الكمالات، ويوجب كثيرا من الأعمال الصالحة، والأفعال الحسنة، وترك كثير من القبائح.

ولجميع التروك، والأفعال، تأثيرات فيها عجيبة؛ فربما يتفق أن السالك يسقط من الأوج الأعلى إلى أسفل السافلين بنظرة واحدة تحقيرية إلى عبد من عباد الله؛ ولا يستطيع جبران هذا السقوط في السنين المتوالية، ولما كانت قلوبنا، نحن المساكين، ضعيفة، خفيفة، تضطرب بالنسيم الرقيق، وتفقد حالة السكون، فاللازم لنا أن نلاحظ الحالات القلبية حتى في الأمور العادية، ومنها اتخاذ اللباس، ونتحفظ على القلب؛ فلابد للسالك من أن يحترز في انتخاب مادة اللباس، وهيأته، مما يكون له تأثير سيئ في الروح، ويخرج القلب عن الاستقامة، ويجعل وجهة الروح دنيوية، ولا يتوهّم أن

تسويل الشيطان، وتدليس النفس الأمّارة، إنما هو في اللباس الفاخر الجميل فقط، وفي التجمّل، والتزين حسب، بل اللباس الخلق الذي لا قيمة له ربما يسقط الإنسان عن درجة الاعتبار، ومن هذه الجهة لابد للإنسان من أن يحترز من لباس الشهرة، بل من مطلق المشي على خلاف المعمول، والمتعارف، ولابدّ من أن يحترز عن الألبسة الفاخرة التي تكون لمادتها، وجنسها قيمة، وتكون هيئتها وخياطتها جالبة للأنظار، ومشارا إليها بالبنان، لأن قلوبنا ضعيفة، وغير ثابتة، فبمجرد الامتياز، والتعين، تزلّ وتنحرف عن الاعتدال؛ ومن هذه الجهة قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**من لبس ثوبا عاليا فلا بد من التكبر، ولابد للمتكبّر من النار**»[1].

وكذلك لهيأته، وكيفيّة قصّه، وخياطته، آثار؛ فربما يحصل للإنسان لشبه لباسه بالأجانب عصبية جاهلية لهم، ويتضجّر ويتنفّر من الله ورسوله، ويكون أعداء الله وأعداء رسوله محبوبين عنده؛ فعن الصادق عليه السلام: «**إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى بعض أوليائه: قل للمؤمنين لا تلبسوا ملابس أعدائي؛ ولا تأكلوا كأعدائي؛ ولا تمشوا كأعدائي؛ فتكونوا أعدائي، كما هم أعدائي**»[2].

---

(١) مستدرك الوسائل: ٣/٢٥٧، باب: استحباب التواضع في الملابس ح: ٣٥٢٦ مع اختلاف يسير.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ١/٢٥٣، ح: ٧٧٠، مع اختلاف يسير

وكذلك للألبسة الدنية جدا من حيث المادة والجنس، ومن حيث الهيأة، والشكل، تأثير في النفوس، لأن للنفس مكائد دقيقة جدا، فحين يرى السالك نفسه قد لبس اللباس الخشن، ولبس سائر الناس الألبسة اللينة اللطيفة، يغفل عن عيوبه، ويحسب هذا الأمر العرضي سببا لافتخاره، فالمسكين قنع من جميع مراتب المعرفة، والتقوى، والكمالات النفسانية، باللباس الخشن، ولبس الخلق، وغفل عن الآلاف من عيوبه، وحسب نفسه من أهل الله، وهو من أولياء الشيطان.

وبالجملة لباس الشهرة، سواء في جانب الإفراط، أو التفريط، من الأمور التي تزلزل القلوب الضعيفة، وتخلعها من مكارم الأخلاق، وتوجب العجب، والرياء، والكبر؛ فعن الصادق عليه السلام: «**إن الله يبغض شهرة اللباس**»[1].

وعنه عليه السلام: «**إن الله يبغض الشهرتين: شهرة اللباس، وشهرة الصلاة**»[2].

ب) في آداب لباس المصلي

في هذا الموضوع أمران:

أحدهما: في سر طهارة اللباس

لا بد للسالك من أن يجعل طهارة اللباس، الذي هو ساتر للقشر،

---

(١) الكافي: ج٦، ص٤٤٥، باب: لباس البياض، ح١

٢ مشكاة الانوار: ص٥٥٣، ح١٨٦٤ ٢

بل قشر القشر، وسيلة لطهارة الألبسة الباطنية، وليتفطّن إلى أن هذا اللباس الصوري ساتر، فهو لباس للبدن الملكي، فالبدن ساتر للبدن البرزخي، والبدن البرزخي موجود الآن، ولكنه في ستر البدن الدنيوي؛ والبدن البرزخي ساتر، ولباس، وحجاب للنفس، وهي ساترة للقلب، والقلب ساتر للروح، والروح ساتر السر، وهو ساتر اللطيفة الخفية، إلى غير ذلك من المراتب، وكل مرتبة نازلة ساترة للمرتبة العالية.

إنّ قذارات المعاصي، التي هي من تصرفات الشيطان، وقاذوراته، من موانع ورود محضر الحق، فالمتلبّس بالمعاصي قد نجّس ساتر البدن البرزخي، ولا يتمكن مع هذه القذارة، من أن يرد إلى محضر الحق، وتطهير هذا اللباس من شرائط تحقق الصلاة الباطنية، وصحتها؛ وما دام الإنسان في حجاب الدنيا لا يطّلع على ذلك البدن الغيبيّ، ولكن في اليوم الذي يخرج عن هذا الحجاب، يدرك بعين البصيرة أن صلاته كانت فاقدة للطهارة، وكان مبتلى بآلاف الموانع، التي كان كل واحد منها سببا مستقلا للتبعيد عن محضر الحق المقدس؛ وليس في ذلك اليوم طريق للجبران، ولا حيلة للإنسان، بل ما يبقى له حين ذاك فقط هو الحسرات ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾[1].

فإذا حصلت الطهارة للباس الباطني، فيلزم طهارة البدن الملكوتي

(١) مريم: ٣٩

من رجز الشيطان، وهو التطهير من أرجاس الأخلاق الذميمة التي يلوّث كل منها الباطن، ويبعّد الإنسان عن المحضر، وإنما أصول جميع الذمائم، ومبادؤها، العجب، وحبّ النفس، والتكبّر، والتظاهر، والتعصّب؛ وكل منها مبدأ كثير من الذمائم الأخلاقية، ورأس كثير من الخطيئات، فإذا فرغ السالك من هذه الطهارة، وطهّر لباس التقوى بماء التوبة النصوح، والرياضة الشرعية، فيلزمه أن يشتغل بتطهير القلب، الذي هو الساتر الحقيقي، وتصرّف الشيطان فيه أكثر، وقذاراته سارية إلى سائر الألبسة، والسواتر، وما لم يطهّر ذاك، لا تتيسرّ سائر الطهارات؛ **ولتطهيره مراتب منها:**

المرتبة الأولى: التطهير من حبّ الدنيا، الذي هو رأس كل الخطيئات، ومنشأ جميع المفاسد، ولا تحصل هذه المرتبة من التطهير إلا بالعلم النافع، والرياضات القوية القلبية، وصرف الهمّة في التفكر في المبدأ والمعاد، وانشغال القلب بالاعتبار في أفول الدنيا، وخرابها؛ وكرامة العوالم الغيبية وسعادتها: «رحم الله امرءًا علم من أين، وفي أين، وإلى أين ؟»[1].

المرتبة الثانية: التطهير من الاعتماد على الخلق، الذي هو شرك خفيّ، بل هو عند أهل المعرفة شرك جليّ، ويحصل هذا التطهير بالتوحيد الفعلي

(١) الحكمة المتعالية ٣٥٥/٩، وقال عنه الريشهري في (العلم والحكمة في الكتاب والسنة) ٢٨٣: لم نجد هذا الحديث المشهور في الكتب الحديثيّة.

للحقّ جلّ وعلا، الذي هو منبع الطهارات القلبية؛ وهذا التطهير من المقامات الجليلة للسالكين، وبعد هذا المقام مقامات أخر.

والآخر: في ستر العورة

إنّ كشف العورات الباطنية في محضر الحق، أقبح، وأفضح من كشف العورات الظاهرية بمقتضى الحديث: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**»[1]؛ وهذه العورات الباطنية، والذمائم الأخلاقية، وخبائث العادات، والأحوال الرديئة الخلقية، هي التي تسقط الإنسان عن لياقة المحضر، وأدب الحضور، وهذه هي المرتبة الأولى من هتك الستور، وكشف العورات، وليعلم أن الإنسان إن لم يستر نفسه بحجاب الستارية، والغفارية، من الحق جلّ وعلا، ولم يقع تحت اسم الستّار، والغفار، مع طلبة الغفارية والستارية؛ فبعد انطواء ساتر الملك، وارتفاع حجاب الدنيا، ربما تهتك ستوره في محضر الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين عليهم السلام؛ ولا يعلم قباحة كشف تلك العورات الباطنية، ونتنها سوى الله؛ فيلزم السالك إلى الله، أن يبدّل أوصافه، وأخلاقه السيّئة، إلى الأوصاف، والأخلاق الكاملة، ويفنى في بحر الأوصاف الكمالية للحق، هذا البحر المتلاطم غير المتناهي، ويبدّل

(١) الأمالي: ص٥٣٦،

الأرض المظلمة الشيطانية، بأرض بيضاء مشرقة، ويجد في نفسه: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[١]؛ ويحقق في مملكة وجوده مقام أسماء الجمال، والجلال، للذات المقدسة، فيقع في هذا المقام في ستر الجمال، والجلال؛ ويتخلّق بأخلاق الله؛ والمصلي في هذا المقام مستور بالحق ومصلٍّ بصلاة الحق.

عن الصادق عليه السلام: «**أزين اللباس للمؤمنين لباس التقوى؛ وأنعمه الإيمان**»[٢]؛ قال الله عز وجل: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[٣].

«أما اللباس الظاهر فنعمة من الله يستر عورات بني آدم، وهي كرامة أكرم الله بها عباده ذرية آدم، لم يكرم غيرهم، وهي للمؤمنين آلة لأداء ما افترض الله عليهم، وخير لباسك ما لا يشغلك عن الله عزّ وجلّ، بل يقرّبك من شكره، وذكره، وطاعته، ولا يحملك فيها إلى العجب، والرياء، والتزين، والمفاخرة، والخيلاء؛ فإنها من آفات الدين؛ ومورثة القسوة في القلب؛ فإذا لبست ثوبك، فاذكر ستر الله عليك ذنوبك برحمته، وألبس باطنك بالصدق، كما ألبست ظاهرك بثوبك؛ وليكن باطنك في ستر الرهبة؛ وظاهرك في ستر الطاعة؛ واعتبر بفضل الله عز

(١) الزمر: ٦٩

(٢) مصباح الشريعة: ص٣٠

(٣) الأعراف: ٢٦

وجل؛ إذ خلق أسباب اللباس لتستر العورات الظاهرة، وفتح أبواب التوبة، والإنابة لتستر بها عورات الباطن من الذنوب، وأخلاق السوء؛ ولا تـفضح أحدا حيـث ستـر الله عليك أعظم منه، واشتغلْ بعيب نفسك؛ واصفح عمّا لا يعنيك حاله، وأمره؛ واحذر أن تفني عمرك لعمل غيرك؛ ويتّجر برأس مالك غيرك؛ وتهلك نفسك؛ فإن نسيان الذنوب من أعظم عقوبة الله تعالى في العاجل، وأوفر أسباب العقوبة في الآجل؛ وما دام العبد مشتغلا بطاعة الله تعالى، ومعرفة عيوب نفسه، وترك ما يشين في دين الله، فهو بمعزل عن الآفات، خائض في رحمة الله عز وجل، يفوز بجواهر الفوائد، من الحكمة، والبيان؛ وما دام ناسيا لذنوبه، جاهلا لعيوبه، راجعا إلى حوله، وقوته، لا يفلح إذًا أبدا»[1]. أي: إذا لبست اللباس الظاهر، فتذكر أن الله تعالى ستر بساتر رحمته ذنوبك، ومعاصيك؛ وكما أنك لبّست ظاهرك باللباس الظاهري، فلا تغفل عن الألبسة الباطنية، ولبّس باطنك بلباس الصدق، ولا بد لك من أن تجعل باطنك في ستر الخوف، والرهبة، وظاهرك في ستر الطاعة؛ وتعتبر من فضل الله تعالى، إذ أعطى اللباس الظاهر كي تستر به عيوبك الظاهرة؛ وفتح لك أبواب التوبة، والإنابة كي تستر بها العورات الباطنية، التي هي

(١) مصباح الشريعة: ٣١

المعاصي، والأخلاق الذميمة؛ ولا تفضح أحدا كما أن الله سبحانه لم يفضحك فيما هو أعظم؛ واشتغل بعيب نفسك، كي ينفتح لك باب الإصلاح؛ واصفح عما لا يكون معينا لك؛ واحذر أن تفني عمرك لعمل غيرك، وتكتب نتيجة أعمالك في صحيفة أعمال غيرك؛ ويتّجر الآخرون برأس مالك؛ وتلقي بنفسك إلى الهلاك، لأن نسيانك ذنوبك، من أعظم العقوبات التي ابتلى الله تعالى الإنسان في الدنيا بها؛ لأنه إذا نسي ذنوبه لم يقم بإصلاح نفسه، ونسيان الذنوب من أوفر أسباب العذاب في الآخرة؛ وما دام العبد مشتغلا بطاعة الحق عز وجل، ومشغولا بمعرفة عيوب نفسه، وتاركا للأمور التي هي عيب في دين الله، فهو بمعزل عن الآفات، وغائص في بحر رحمة الله، وفائز بجواهر الحكمة، والبيان، وما دام العبد ناسيا ذنوبه، وجاهلا بعيوبه، ومعتمدا على حوله، وقوته، لا يحصل له الفلاح أبدا.

ثالثا: في آداب مكان المصلّي وإباحته

للسالك إلى الله بحسب النشآت الوجودية أمكنة، ولكل منها آداب مخصوصة، ما لم يتحقق السالك بها، لم يتوصّل إلى صلاة أهل المعرفة، هي:

المقام الأول: النشأة الطبيعية، والمرتبة الظاهرية الدنيوية، ومكانها أرض الطبيعة. قال رسول الله ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجدا**

وطهورا»[1]. فالسالك في هذه المرتبة أدبه في أن يفهم قلبه أن نزوله من النشأة الغيبية وهبوط النفس من المحل الأعلى الأرفع إلى أرض الطبيعة السفلى ورده من أحسن تقويم إلى أسفل سافلين من أجل سلوكه الاختياري إلى الله وعروجه إلى معراج القرب ووصوله إلى فناء الله الذي هو غاية الخلقة ونهاية المقصد لأهل الله. العارف يقول: من الله وفي الله وإلى الله؛ فللسالك أن يفهم نفسه ويذوق بذائقة روحه أن دار الطبيعة هي مسجد عبادة الحق وأنه قدم إلى هذه النشأة لهذا المقصد، قال جلّ وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]

المقام الثاني: مرتبة القوى الظاهرة والباطنة التي هي جنود ملكية وملكوتية للنفس ومحلّها الارض الطبيعية الإنسانية وهي هذه البنية والبدن؛ وأدب السالك في هذا المقام، أن يفهم باطن قلبه بأن أرض الطبيعة هي نفسه، وهي مسجد الربوبية ومحل السجدة للجنود الرحمانية فلا ينجسها بقاذورات تصرف إبليس كي تشرق ارض الطبيعة بشروق نور الرب فيرى قواه الملكية الملكوتية معتكفة في مسجد البدن ويعامل بدنه معاملة المسجد، وتكليف السالك في هذا المقام أكثر لأن تنظيف المسجد وطهارته على عهدته كما أنه بنفسه يتكفل أدب المعتكفين في هذا المسجد.

---

(١) الامالي: ٢٨٥

(٢) الذاريات ٥٦

المقام الثالث: النشأة الغيبية للسالك: ومحلها البدن البرزخي الغيبي للنفس الذي يتكون بإنشاء النفس وخلاّقيتها، والأدب للسالك في هذا المقام أنّ يذوّق نفسه أن التفاوت بين هذا المقام والمقامات الآخر كثير وحفظ هذا المقام من مهمات السلوك لأن القلب هو إمام المعتكفين، وبفساده يفسد الجميع؛ وللسالك إلى الله في جميع مقامات السلوك مهمة أخرى لا يجوز له الغفلة عنها مطلقا بل هذه المهمة هي غاية السلوك ولب لبابه، وهي أن لا يغفل في جميع الحالات والمقامات عن ذكر الحق ويطلب في جميع المناسك والعبادات معرفة الله؛ ويطلب الله في جميع المظاهر ولا تمنعه النعمة والكرامة عن الصحبة والخلوة فانه نوع من الاستدراج.

جاء عن الصادق عليه السلام ما محصّله[1]: **أنه إذا وصلت إلى باب المسجد فانتبه إلى أيّ باب وصلت؟ وأيّ جناب قصدت؟ فاعلم أنك وصلت إلى جناب السلطان العظيم الشأن الذي لا يضع أحد قدمه على بساط قربه الا إذا طهر وتطهر من جميع أرجاس عالم الطبيعة، والأرجاس الشيطانية ولا يصدر الاذن لمجالسته الا الذين يقدمون عليه بالصدق والصفاء والخلوص من جميع أنواع الشرك الظاهر والباطن، فاجعل عظمة الموقف**

(١) ينظر: مصباح الشريعة ٦٩ ــ ٧١

والهبة والعزّة والجلال الالهي نصب عينك ثم ضع قدمك إلى جناب القدس وبساط الانس فانك واقع في مخاطرة عظيمة؛ فانك وردت إلى جناب القادر المطلق يجري ما يشاء في مملكته فإما أن يعاملك بالعدالة ويناقش في الحساب فيطالب بالصدق والاخلاص وتحجب عن الجناب وتردّ طاعتك وإن كثرت، وإما أن يعطف اليك طرفه ويقبل بفضله ورحمته طاعتك التي هي لا شيء ولا قيمة لها ويعطيك ثوابه العظيم فإذا عرفت الآن عظمة الموقف فاعترف بعجزك وتقصيرك وفقرك وإذا توجهت إلى عبادته وقصدت المؤانسة معه ففرّغ قلبك عن الانشغال بغيره، الذي يحجبك عن جمال الجميل وهذا الاشتغال بالغير قذارة وشرك ولا يقبل الحق تعالى الا القلب الطاهر الخالص، وإذا وجدت في نفسك حلاوة مناجاة الحق وذقت حلاوة ذكر الله وجرعت من كأس رحمته وكراماته ورأيت حسن اقباله واجابته في نفسك فاعلم انك صرت لائقا لخدمته المقدسة، فادخل فانك مأذون ومأمون وإذا ما وجدت في نفسك هذه الحالات فقف بباب رحمته كالمضطر الذي انقطعت عنه جميع العلاجات وبعد عن الآمال وقرب إلى أجله فإذا عرضت ذلّتك ومسكنتك والتجأت إلى بابه ورأى سبحانه منك الصدق والصفاء فينظر اليك بعين الرحمة والرأفة ويؤيدك ويوفّقك لتحصيل رضاه فانه الذات المقدسة، الكريم، ويحب الكرامة لعباده المضطرين.

أما في إباحة مكان المصلي فإن ابليس اللعين هو عدّو الله وتصرفاته وكل تصرف ابليسيّ في عالم الطبيعة جور وغصب فالسالك إلى الله إن أخرج نفسه من تصرفات ذلك الخبيث يكون تصرّفه تصرّفا رحمانيا ويباح ويطهر مكانه وملبسه ومطعمه ومنكحه وبمقدار ما يقع تحت تصرف ابليس يخرج عن الحلّيّة ويتصرّف فيه شرك الشيطان، فإذا وقعت الاعضاء الظاهرة للإنسان في تصرف ابليس تكون أعضاؤه ابليسية ويكون غاصبا لمملكة الحق.

رابعا: في الآداب القلبية للوقت

المؤمنون في هذا الأمر ثلاث طوائف:

الأولى: أهل المعرفة وأصحاب القلوب، لهم مراقبة لأوقات الصلاة التي هي ميقات المناجاة وميعاد ملاقاة الحق، ولا يزالون يراقبون ذلك؛ فالمجذوبون لجمال الجميل والعاشقون للحسن الأزلي الذين فرغوا عن الكونين وأعرضوا عن جميع أقاليم الوجود وتعلقوا بعز قدس جمال الله لهم دوام الحضور وليسوا مهجورين عن الذكر والفكر والمشاهدة والمراقبة لحظة واحدة.

الثانية: أصحاب المعارف وأرباب الفضائل والفواضل وهم شرفاء النفس وكرماء الطينة، فلا يختارون على مناجاة الحق شيئا ويطلبون من الخلوة مع الحق ومن مناجاته الحق نفسه، ويرون أن العزة والشرف

والفضيلة والمعرفة كلها في تذكر الحق ومناجاته فهم إذا توجهوا إلى العالم ونظروا إلى الكونين يكون توجههم ونظرهم اليها توجه العارفين لها ونظرهم، ويتطلبون الحق في العالم ويطلبونه ويرون جميع الموجودات جلوة للحق ولجمال الجميل؛ فهم يواظبون على أوقات الصلاة بتمام أرواحهم وقلوبهم وينتظرون وقت مناجاة الحق ويحضّرون أنفسهم ويهيئّونها لميقات الحق فقلوبهم حاضرة ويطلبون من المحضر الحاضر ويحترمون المحضر من أجل الحاضر ويرون أنّ العبودية هي المراودة والمعاشرة مع الكامل المطلق فاشتياقهم إلى العبادة من هذا الباب.

الثالثة: الذين يؤمنون بالغيب وعالم الآخرة ويعشقون كرامات الحق (جل جلاله) ولا يستبدلون النعم الابدية الجنانية واللذات والبهجات الدائمة السرمدية بالحظوظ الداثرة الدنيوية واللذائذ الناقصة المؤقتة المشوبة، فهؤلاء أيضا في وقت العبادة التي هي بذور النعم الأخروية يحضرون قلوبهم ويقومون بالأمر بإقبال واشتياق وينتظرون أوقات الصلاة فإنها وقت حصول النتائج واكتساب الذخائر ولا يختارون على النعم الدائمة شيئا.

هذه الطوائف التي ذكرت، وبعضها التي لم يذكر، لهم من العبادة لذائذ بحسب مراتبهم، ومعارفهم؛ وليس لهم كلفة وتكليف فيها أصلا.

إن موسى عليه السلام صام صوما موسويا أربعين يوما ونال ميقات الحق،

وقال تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾[1]، ومع ذلك أين هذا الميقات من الميقات المحمدي ولا نسبة بينه وبين الوقت الأحمدي.

إن موسى عليه السلام في الميعاد خوطب بخطاب ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾[2] وقد فسّر بمحبة الأهل، والرسول الخاتم قد أمر في ميعاده بأن يحب عليا، وفي القلب من هذا السر جذوره ما أبرز منها شيء.

فيا أيها العزيز

أولا: اغتنم وقت المناجاة هذا بالقدر الميسور والمقدار المقدور وقم بآدابه القلبية وفهّم قلبك أن وسيلة الحياة الأبدية الأخروية، ومنبع الفضائل النفسانية، ورأس مال الكرامات غير المتناهية هو المراودة والمؤانسة مع الحق ومناجاته ولا سيما الصلاة فإنها معجون روحاني قد هيّئ بيدي الجمال والجلال للحق وأجمع وأكمل من جميع العبادات، فبقدر ما يمكنك حافظ على أوقاتها وانتخب أوقات فضيلتها فإن فيها نورا ليس في غيرها من الأوقات وأقلل فيها من الاشتغالات القلبية بل اقطعها، وهذا يحصل بأن تقسم وتعيّن أوقاتك وتعيّن للصلاة وقتا خاصا لا يكون لك فيه أشغال أخر، كي تستطيع أن تريح القلب

(١) الأعراف: ١٤٢

(٢) طه ١٢

وتحضره؛ فعن بعض أزواج النبيﷺ أنها قالت: «**كان رسول اللهﷺ يحدّثنا ونحدّثه؛ فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه شغلا بالله عن كل شيء**»(١).

وروي عن عليعليه السلام: «**كان إذا حضر وقت الصلاة يتململ ويتزلزل ويتلوّن، فيقال له: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فيقولعليه السلام: جاء وقت الصلاة وقت أمانة عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها**»(٢).

ونحن ايضا إذا تفكرنا قليلا وفهّمنا قلبنا المحجوب أنّ أوقات الصلاة هي أوقات الحضور في جناب القدس بحضرة ذي الجلال، وأن الحق تعالى ملك الملوك والعظيم المطلق في تلك الأوقات دعا عبده الضعيف الذي هو لا شيء إلى مناجاته وأذن له بالدخول إلى دار الكرامة حتى يفوز بالسعادات الأبدية ويجد السرور والبهجات الدائمية لكنّا مبتهجين ومسرورين من دخول وقت الصلاة بمقدار معرفتنا.

ثانيا: انظر بعين إلى ضعفك ومسكنتك وذلّتك وعجزك؛ وإلى العظمة والجلال والكبرياء للذات المقدسة جلّت عظمته، فإذا نظرت هذه النظرة وفهّمت قلبك فليستشعر القلب الخوف ويرى نفسه

(١) شرح نهج البلاغة: ج٣، ص٧٦

(٢) مستدرك الوسائل: ج٤، ص٩٤

وعباداته لا شيء، وانظر بعين أخرى إلى سعة رحمة الذات المقدسة وكمال عطفها وإحاطة رحمانيتها إذ إنه أذن للعبد الضعيف مع ما له من أنواع التلوّثات وكمال عجزه ومسكنته في الدخول إلى حضرة قدسه، ودعاه إلى مجلس أنسه.

ثالثا: هيئ نفسك للحضور بقدمي الخوف والرجاء والرهبة والرغبة بقلب خجل وفؤاد وجل واستشعار الانكسار والذلة والضعف والمسكنة ولا ترَ لنفسك أية لياقة للحضور في هذا المحضر ولا تعدّ نفسك لائقا للعبادة والعبودية وترى الإذن في الدخول في العبادة والعبودية من شمول الرحمة وعميم اللطف فحسب للحضرة الأحدية جلّت قدرته، فإنك إذا جعلت ذلّتك نصب عينيك وتواضعت لذات الحق المقدسة بروحك وقلبك وعرفت نفسك وعبوديتك لا شيء يتلطف الحق تعالى ويرفعك ويخلّعك بخلعة كراماته.

خامسا: في آداب الاستقبال

ظاهر الاستقبال متقوّم بأمرين:

أحدهما: المقدمي، وهو صرف الوجه الظاهر عن جميع الجهات المتشتتة.

والآخر: النفسي، وهو الاستقبال بالوجه إلى الكعبة أم القرى، ومركز بسط الأرض.

ولهذه الصورة باطن، وللباطن سرّ، بل أسرار، وأصحاب الأسرار الغيبية يصرفون باطن الروح عن الجهات المتشتتة لكثرات الغيب والشهادة ويجعلون جهة السرّ والروح أحدية التعلق؛ فالسالك الذي يسير من الظاهر إلى الباطن ويترقى من العلن إلى السر فلا بد له من أن يجعل هذا التوجّه الصوري إلى مركز البركات الأرضية وترك الجهات المتشتتة المتفرقة التي هي الأصنام الحقيقية، ويتوجّه إلى القبلة الحقيقية التي هي أصل أصول بركات السموات والأرض حتى يصل شيئا ما إلى سرّ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[1] ويحصل في قلبه أنموذج من تجليات عالم الغيب الأسمائي وبوارقه وتحترق الجهات المتشتتة والكثرات المتفرقة ببارقة إلهية ويؤيده الحق تعالى وتنحط الأصنام الصغيرة والصنم الأعظم عن باطن القلب بيد الولاية، ولا انتهاء لهذه القصة فاتركها وامضِ.

اعلم أيها السالك إلى الله أن في الإنسان فطرتين:

إحداهما: التنفّر عن النقص، والناقص.

والأخرى: العشق للكمال والكامل.

وهذان اللذان أحدهما أصلي ذاتي والآخر تبعي ظلّي من الفطر التي خمر بها جميع البشر؛ البدوي منهم والحضري والوحشي والمتمدن والعالم

(١) الأنعام ٧٩

والجاهل والالهي والطبيعي. إن الإنسان الوحش السفّاك الفتّاك القتّال يرى الكمال في أن يغلب على نفوس الناس وأعراضهم ويرى السفك والقتل كمالا فيصرف فيه عمره، وذاك الطالب للدنيا الطالب للجاه والمال يرى الكمال بالمال والجاه ويعشقهما.

إنك إذا صرفت وجهك الظاهر من الجهات المتشتتة لعالم الطبيعة وتوجهت إلى النقطة الواحدة فقد اظهرت الفطرتين بصورة جليّة دنيوية وأقمت بينة على عدم احتجابك من نور كل من هاتين الفطرتين الإلهيتين، والبينتان هما: صرف الظاهر عن غير الله، والتوجه إلى القبلة التي هي محل ظهور يد الله، وقدرة الله.

إنّ في هذا المعجون الإلهي، أعني الصلاة، التي هي معراج القرب الإلهي، استقبال القبلة، ورفع اليد، وصرف الوجه عن الجهات المتفرقة، ادعاء بأن الفطرة قد تيقّظت، وخرج نور الفطرة عن الاحتجابات، وهذا الادّعاء حقيقي بالنسبة إلى الكمّل، وأصحاب المعرفة. وأما بالنسبة إلينا، أصحاب الحجاب، فأدبه: أن نفهّم القلب أنه لا كمال، ولا كامل، في جميع دار التحقق سوى الذات المقدسة الكاملة على الإطلاق؛ فإن تلك الذات المقدسة كمال بلا نقص، وجمال بلا عيب، وخير بلا اختلاط بالشرّ، ونور بلا شوب ظلمة، وما يوجد في جميع دار التحقق من الكمال، والجمال، والخير، والعزّة، والعظمة، والنورانية، والفعلية، والسعادة، فهو

من نور جمال تلك الذات المقدسة، وليس لأحد شركة للذات المقدسة في كمالها الذاتي، وليس لموجود جمال، ولا كمال، ولا نور، ولا بهاء، إلا بجمال تلك الذات المقدسة، وكمالها، ونورها، وبهائها.

عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إذا استقبلت القبلة، فآيس من الدنيا، وما فيها، والخلق وما هم فيه، واستفرغ قلبك عن كل شاغل يشغلك عن الله تعالى، وعاين بسرّك عظمة الله تعالى، واذكر وقوفك بين يديه، يوم ﴿تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾**[1]، **وقف على قدم الخوف، والرجاء**»[2].

(١) يونس: ٣٠

(٢) مصباح الشريعة: ١٠٥

الفصل الثاني

في آداب الأذان والإقامة

مقدمة

السرّ الإجمالي للأذان هو الإعلان للقوى الملكوتية، والملكية، والجيوش الإلهية للحضور، والأدب الاجمالي له هو التنبّه إلى عظمة المقام، وخطره، وعظمة المحضر، والحاضر، وتذلّل الممكن، وفقره، وفاقته، ونقصه، وعجزه عن القيام بالأمر، وعن القابلية للحضور في المحضر، إن لم يؤيده لطف الحق جل وعلا، ورحمته، ويجبر نقصه.

والإقامة: هي إقامة القوى الملكوتية، والملكية، في المحضر، وإحضارها في الحضور، وأدبها هو الخوف، والخشية، والحياء، والخجل، والرجاء الواثق إلى الرحمة غير المتناهية.

إنّ القلوب العشقيّة يغلبها الشوق والجذبة؛ وبقدم الحب والعشق تضع أقدامها في محضر الأنس؛ وقلوبهم بواسطة تلك الجذبة الغيبيّة، وبما فيها من عشق المحضر، والحاضر، تشتغل إلى آخر الصلاة، بالمعاشقة، والمعانقة، مع ذكر الحق، وفكره؛ فعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**أفضل الناس من عشق العبادة وعانقها وأحبّها بقلبه، وباشرها بجسده، وتفرّغ لها، فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا، على يسر، أم على عسر**»[1].

---

(١) الكافي: ج٢، ص٨٣، باب: العبادة، ح٣

والقلوب الخوفية يتجلى لها سلطان العظمة؛ وتغلب عليها جذبة القهر؛ وتجعلها في حالة الصعق؛ ويذوبّها الخوف، والخشية؛ ويمنعها عن كل شيء القصور الذاتي، واستشعار الذلّة والعجز؛ قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إن لله عبادا كسرت قلوبهم خشيته فأسكتتهم عن المنطق**»[1].

إنّ الحق تعالى يتجلى لأوليائه الكمّل بثلاث تجليات:

الأول: التجلّي اللطفي، ويكون العشق، والجذبة الحبية هاديا لهم، كما في الحديث بأن رسول الله صلى الله عليه وآله كان ينتظر الصلاة، ويشتدّ عشقه، وشوقه؛ فيقول لبلال المؤذن: «**أرحنا يا بلال**»[2].

الثاني: تجلي العظمة، والسلطنة؛ فيحصل فيهم الخوف، والخشية؛ وقد نقلت الحالات الخوفية لرسول الله صلى الله عليه وآله، ولأئمة الهدى عليهم السلام.

الثالث: التجلي الأحدي الجمعي، بحسب طاقة قلوبهم، وسعة أوعيتها.

أمّا نحن ـ المحجوبين، المشتغلين بالدنيا، المحبوسين في سجن الطبيعة، فخارجون عن نطاق هذه التقسيمات، ومستثنون من نطاق هذا البيان، فآداب الحضور لنا طور آخر، ولكن علينا أن نخرج من قلوبنا اليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، الذي هو من الجنود العظيمة

---

(١) تحف العقول: ٣٩٤

(٢) بحار الانوار: ج٧٩، ص١٩٣

لإبليس؛ نعم، إن المقام الخاص لكمّل أهل الله لا يتيسّر لأحد، ولكن للمقامات المعنوية، والمعارف الإلهية، مدارج غير متناهية لها مراتب كثيرة، يتيسّر لنا أكثرها؛ فأدب الحضور بالنسبة الينا هو أنه لما كنا في بدء الأمر لم نتجاوز مرتبة الحس والظاهر، وليس في أعيننا سوى العظمة والجلالة الدنيوية، وليس عندنا أي خبر عن العظمة الغيبية الإلهية، فلا بد لنا من أن نرى محضر الحق تعالى، كمحضر سلطان عظيم الشأن، قد أدرك القلب عظمته، وأن نفهم قلوبنا أن كل عظمة، وجلال، وكبرياء، هي تجلٍ من عظمة عالم الملكوت، قد تنزّلت في هذا العالم، وإن عالم الملكوت بالنسبة إلى العوالم الغيبية، وفي جنبها، ليس له قدر محسوس؛ فنفهّم القلب أن العالم هو المحضر المقدّس لحضرة الحق، وأن الحق تعالى حاضر في جميع الأمكنة، ولاسيما الصلاة؛ فهي إذن خاص للحضور؛ وميعاد مخصوص للملاقاة، ومراودة الحضرة الأحدية.

أولا: في تكبيرات الأذان والإقامة وأسرارهما

الصلاة ثناء جامع؛ ومورد هذا الثناء، هو الذات المقدسة بحسب تجلّيها بالاسم الأعظم، وفي سر التكبيرات الأربعة وجهان:

الأول: يتوجّه السالك ابتداء إلى كبرياء الذات المقدسة؛ فيعلن عظمتها، وكبرياءها، على قوى مملكة نفسه، الملكوتية منها والملكية؛ وعلى ملائكة الله الموكلة بملكوت السموات والأرضين، فيعلن بحسب

التكبيرات الأربعة كبرياء الاسم الأعظم على جميع سكنة عوالم الغيب، والشهادة، في المملكة الداخلية والخارجية؛ وهذا نفسه إعلان عجزه عن القيام بالثناء على الذات المقدسة، وإعلام قصور نفسه عن إقامة الصلاة.

الثاني: يمكن أن تكون كل تكبيرة من التكبيرات الأولية في الأذان إشارة إلى مقام، فالتكبيرة الأولى إشارة إلى التكبير عن التوصيف ذاتا؛ والثانية إلى التكبير عن التوصيف وصفا؛ والثالثة إلى التكبير عن التوصيف اسما؛ والرابعة إلى التكبير عن التوصيف فعلا؛ فكأن السالك يقول: الله أكبر من أن توصف ذاته، أو تجليات ذاته، والله أكبر من أن توصف صفاته، وأسماؤه، وأفعاله، أو تجلياتها بحسبها.

ومن الآداب المهمة للتكبير أن السالك عليه أن يجاهد، ويجعل قلبه محلا لكبرياء الحق جلّ جلاله، بالرياضات القلبية، ويحصر كبر الشأن، والعظمة، والسلطان، والجلال، بذات الحق المقدسة جلّ وعلا؛ ويسلب الكبرياء عن سائر الموجودات.

فعلى السالك أن لا يتوقف على صورة التكبير، ولا يكتفي باللفظ فقط، ولقلقة اللسان، بل ينبّه القلب في أول الأمر بقوة البرهان، ونور العلوم الإلهية، على كبرياء الحق؛ وأنّ العظمة، والجلال، مقصورة على الذات المقدسة، جلّت عظمتها، وعلى فقر الموجودات الجسمانية، والروحانية، كلها، وذلّتها، ومسكنتها؛ وبعد ذلك بقوة الرياضة، وكثرة

المراودة، والأنس التام، يحيي قلبه بهذه اللطيفة الإلهية، ويعطيه السعادة، والحياة العقلية الروحانية.

أمّا السر في أن في الإقامة تكبيرتين، فهو أن السالك قد أقام قواه في المحضر، وانتقل من الكثرة إلى الوحدة شيئا ما، فيكبّر الذات، والأسماء، أو الأسماء، والصفات؛ ولعل تكبير الصفات، والأفعال، ينطوي في تكبير الذات، والأسماء.

ثانيًا: في آداب الشهادة بالألوهية

للألوهية مقامات يعبّر عنها بحسب الجمع بمقامين:

أحدهما: مقام الألوهية الذاتية.

والآخر: مقام الألوهية الفعلية.

وإذا كان المقصود من الشهادة على قصر الألوهية في الحق، هو الألوهية الذاتية، تكون حقيقتها مقاربة للتكبير.

وإذا كانت مشتقة من (أله في الشيء) أي: تحيّر فيه، أو مشتقة من (لاه) بمعنى: ارتفع، أو مشتقة من لاه يلوه بمعنى احتجب فيعلم ربطه بالأذان والصلاة بعد مراجعة باب التكبير.

وإذا كان الإله مأخوذا من (أله) بمعنى: عبد، ويكون المراد: المألوه، بمعنى: المعبود، فعلى السالك أن يجعل الشهادة الصورية على قصر المعبودية للحق تعالى جلّت عظمته، منطبقة على الشهادة القلبية الباطنية،

ويعلم أنه إن كان في القلب معبود سواه، فهو منافق في هذه الشهادة؛ فلا بد له من أن يوصل الشهادة بالألوهية إلى القلب بكل رياضة؛ ويكسر الأصنام الصغيرة، والكبيرة، المنحوتة بيد تصرف الشيطان، والنفس الأمارة في كعبة القلب، ويحطّمها حتى يصير لائقا لحضور حضرة القدس؛ وما دامت أصنام حب الدنيا، والشؤون الدنيوية، موجودة في كعبة القلب، لا يجد السالك طريقا إلى المقصد؛ فالشهادة بالألوهية للإعلان للقوى الملكية والملكوتية أن تجعل المعبودات الباطلة، والمقاصد المعوجّة، تحت قدمها، كي تتمكن من العروج إلى معراج القرب.

وإذا كان المقصود من قصر الألوهية، الألوهية الفعلية التي هي التصرف، والتدبير، والتأثير، فيكون معنى الشهادة: أني أشهد أن لا متصرف في دار التحقق، ولا مؤثّر في الغيب والشهادة، إلا ذات الحق المقدسة جلّ وعلا؛ وإذا كان في قلب السالك اعتماد على موجود من الموجودات فقلبه معتل، وشهادته زور.

فإذا قصر السالك جميع التأثيرات على الحق؛ وغمض عين الطمع عن جميع الموجودات سوى الذات المقدسة، كان لائقا للمحضر المقدس، بل كان قلبه متوجها إلى ذلك المحضر، فطرة، وذاتا؛ ولعلّ تكرار الشهادة لأجل التمكين، ويكون المقصود من الشهادة إحدى الشهادتين.

ولعله لا تكرار، فإحداهما إشارة إلى الألوهية الذاتية، والأخرى:

إشارة إلى الألوهية الفعلية، ففي هذه الصورة إعادتها في آخر الإقامة للتمكين؛ لذا لم يذكر هناك بلفظ الشهادة.

تنبيه عرفاني

للشهادة مراتب نكتفي ببعضها بحسب ما يناسب هذه الأوراق.

المرتبة الأولى: الشهادة القولية، وهذه الشهادة إذا لم تكن مشفوعة بالشهادة القلبية، ولو ببعض مراتبها النازلة، ليست بشهادة، بل خدعة ونفاق.

المرتبة الثانية: الشهادة الفعلية، وهي أن يشهد الإنسان بحسب الأعمال الجوارحية، فلا يمدّ يد حاجته الا إلى المحضر المقدس للحق (جلّ وعلا) ولا يفتح عين رجائه إلى موجود من الموجودات، وفي الحديث الشريف: «**إن عزّ المؤمن استغناؤه عن الناس**»[1]، ومن المستحبات الشرعية إظهار النعمة، والغنى، ومن المكروهات طلب الحوائج من الناس؛ فعلى الإنسان أن يجري اللطيفة الإلهية: لا مؤثر في الوجود الا الله في مملكة الظاهر.

المرتبة الثالثة: الشهادة القلبية، وهي منبع الشهادات الأفعالية والأقوالية، وما لم تكن تلك، لا تكون هذه، ولا تتحق؛ وهي أن يتجلى

(١) شرح نهج البلاغة ابن ابي الحديد: ج١٢، ص١١٧

التوحيد الفعلي للحق في القلب؛ ويدرك القلب بسرّه الباطني حقيقة هذه اللطيفة؛ وينقطع عن سائر الموجودات؛ وينفصل عنها، فعن علي بن الحسين عليهما السلام قال: «**رأيت الخير كله قد اجتمع في قطع الطمع عمّا في أيدي الناس؛ ومن لم يرج الناس في شيء، وردّ أمره إلى الله (تعالى) في جميع أموره، استجاب الله (تعالى) له في كل شيء**»[1].

المرتبة الرابعة: الشهادة الذاتية، وهي الشهادة الوجودية التي تتحقق في الكمّل من الأولياء، وفي نظر الأولياء هذه الشهادة بمعنى موجودة في جميع الموجودات، ولعل الآية الشريفة ﴿ **شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ** ﴾[2]، إشارة إليها.

إن الشهادة بالألوهية موجبة لفتح أبواب السماء، وخرق الحجاب، وباعث لاجتماع ملائكة الله؛ وهذا الحجاب الذي يخرق بها، من الحجب الغليظة الظلمانية، التي ما دام السالك فيها لا طريق إلى الحضور في المحضر، وما لم يفتح هذا الباب له، فليس له طريق إلى السلوك؛ وهو حجاب الكثرة الأفعالية، والوقوع في الاحتجاب التكثيري، الذي نتيجتة رؤية فاعلية الموجودات، ومؤثريتها، وثمرة هذه الرؤية، رؤية استقلالها

(١) الكافي: ج٢، ص١٤٨، باب: الاستغناء عن الناس، ح٣

(٢) آل عمران: ١٨

في الفاعلية، والتفويض المحال، والشرك الأعظم؛ ونتيجة الشهادة بالألوهية، وحصرها في الحق تعالى، هو التوحيد الأفعالي، وإفناء الكثرات في فعل الحق، ونفي التأثير والفاعلية عن غيره، وطرد الاستقلال عن غير الحق تعالى.

ثالثًا: في آداب الشهادة بالرسالة، والشهادة بالولاية

لا يمكن طيّ هذا السفر الروحاني، والمعراج الإيماني، بهذه الرجل المكسورة، والعنان المرخي، والعين العمياء، والقلب الذي هو بلا نور؛ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[1].. فمن المحتوم، واللازم، لسلوك هذا الطريق الروحاني، وعروج هذا المعراج العرفاني، التمسك بمقام روحانية هداة طرق المعرفة، وأنوار سبل الهداية، الذين هم الواصلون إلى الله، والعاكفون على الله؛ ولو أراد أحد أن يطوي هذا الطريق بقدم أنانية نفسه، من دون التمسك بولايتهم، فسلوكه إلى الشيطان والهاوية.

وبالجملة، التمسّك بأولياء النعم الذين اهتدوا إلى طريق العروج إلى المعارج، وأتمّوا السير إلى الله، من لوازم السير إلى الله؛ وقد أشير إلى ذلك في أحاديث كثيرة؛ وقد عقد في الوسائل بابًا في أن العبادة بلا ولاية الأئمة والاعتقاد بإمامتهم باطلة.

---

(١) النور: ٤٠

عن أبي حمزة الثمالي قال: قال لنا علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «**أيّ البقاع أفضل؟**، فقلت: الله ورسوله أعلم، فقال: **إن أفضل البقاع ما بين الركن والمقام؛ ولو أنّ رجلا عمّر ما عمّر نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، يصوم النهار، ويقوم الليل، في ذلك الموضع، ثم لقي الله بغير ولايتنا، لم ينفعه ذلك شيئا**»[1].

والأحاديث في هذا الباب أكثر من أن تسعها هذه الرسالة.

وأما آداب الشهادة بالرسالة، فهي أن يوصل الشهادة بالرسالة من الحق إلى القلب، ولا سيما الرسالة الختمية، التي جميع دائرة الوجود من عوالم الغيب والشهود تتنعّم تكوينا، وتشريعا، ووجودا، وهداية، من سقطات موائد نعمه. إنّ علامة صدق الشهادة أن تظهر آثارها في جميع القوى الغيبيّة والظاهرة. وإنّ ارتباط الشهادة بالرسالة بالأذان والإقامة له وجهان:

أحدهما: أن السالك في هذا الطريق الروحاني محتاج إلى التمسك بذاك الوجود المقدّس، حتى يعرج بمصاحبته، وتأييده، هذا العروج الروحاني.

والآخر: أن في هذه الشهادة إعلانا للقوى الملكية، والملكوتية، بأن

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٢، ص٢٤٥، ح٢٣١٣

الصلاة، التي هي حقيقة معراج المؤمنين، ومنبع معارف أصحاب العرفان، وأرباب الإيقان، هي نتيجة الكشف التام المحمديﷺ، فإذا استقرّت هذه العقيدة في القلب، وتمكن بالتكرار، فيدرك السالك عظمة المقام، وجلالة المحلّ البتة، ويطوي هذه المرحلة بقدمي الخوف، والرجاء، والمرجو منهﷺ أن يؤيده إن شاء الله، ويقرّبه إلى مقام القرب الأحدي، الذي هو المقصد الأصلي، والمقصود الفطري؛ فللسالك إلى الله، أن يوصل إلى باطن قلبه، وروحه، مقام الخلافة الكبرى الأحمدية، وبها يكشف الحجاب، ويخرق الستور، ويخرج بالكلّية عن حجب التعيّن الخلقي، فتنفتح له جميع أبواب السموات، ويصل إلى مقصده بلا حجاب.

ويستحب بعد الشهادة بالرسالة، الشهادة بالولاية، وإمارة المؤمنين، فعن قاسم بن معاوية قال: «قلت لأبي عبدالله: هؤلاء يروون حديثا في معراجهم، أنه لما أسري برسول الله رأى على العرش مكتوبا: لا إله الا الله، محمد رسول الله، أبو بكر الصدّيق، فقال: **سبحان الله، غيرّوا كل شيء حتى هذا؟** قلت نعم، قال: **إن الله (عزّ وجلّ) لما خلق العرش كتب عليه: لا إله الا الله، محمد رسول الله، عليّ أمير المؤمنين؛ ولما خلق الله (عزّ وجل) الماء كتب في مجراه: لا إله الا الله، محمد رسول الله، عليّ أمير المؤمنين، ثم تذكر الرواية كتابة هذه الكلمات على قوائم الكرسي، واللوح، وعلى جبهة إسرافيل، وعلى جناحي جبرائيل، وأكناف السموات، وأطباق الأرضين،**

ورؤوس الجبال، وعلى الشمس، والقمر؛ ثم قال: فإذا قال أحدكم: لا إله الا الله، محمد رسول الله، فليقل: عليّ أمير المؤمنين»[1].

وبالجملة: هذا الذكر الشريف، يستحب بعد الشهادة بالرسالة مطلقا، وفي فصول الأذان لا يبعد استحبابه بالخصوص؛ وإن كان الاحتياط يقتضي أن يؤتى به بقصد القربة المطلقة لا بقصد الخصوصية في الأذان، لتكذيب العلماء الأعلام تلك الروايات.

وأما النكتة العرفانية في كتابة هذه الكلمات على جميع الموجودات من العرش الأعلى إلى منتهى الأرضين، فهي أن حقيقة الخلافة، والولاية، هي ظهور الألوهية، وهي أصل الوجود، وكماله؛ وكل موجود له حظ من الوجود، له حظ من حقيقة الألوهية، وظهورها الذي هو حقيقة الخلافة، والولاية اللطيفة الإلهية ثابتة على ناصية جميع الكائنات، من عوالم الغيب إلى منتهى عالم الشهادة، وتلك اللطيفة الإلهية هي حقيقة الوجود المنبسط، والنفس الرحماني، والحق المخلوق به، الذي هو بعينه باطن الخلافة الختمية، والولاية المطلقة العلوية؛ ومن هذه الجهة كان الشيخ العارف شاه ابادي يقول: إن الشهادة بالولاية، منطوية في الشهادة بالرسالة، لأن الولاية هي باطن الرسالة.

---

(١) الاحتجاج ١/٢٣٠ ـ ٢٣١

ويقول الكاتب: إن الشهادتين منطويتان جميعا في الشهادة بالألوهية؛ وفي الشهادة بالرسالة الشهادتان الأخريان منطويتان، كما أن الشهادتين الأخريين منطويتان في الشهادة بالولاية.

رابعًا: في آداب الحيّعلات

إذا اعلن السالك إلى الله بالتكبيرات، عظمة الحق تعالى عن التوصيف، وبالشهادة بالألوهية قصر التوصيف، والتحميد، والتأثير على الحق؛ وأسقط نفسه عن اللياقة للقيام بالأمر؛ واختار الرفيق، والمصاحب، بالشهادة بالرسالة، والولاية، وتمسك بمقام الخلافة، والولاية المقدسة، وقد قيل: الرفيق ثم الطريق؛ بعد ذلك كله، لابدّ له من أن يهيّئ القوى الملكية، والملكوتية، بصراحة اللهجة للصلاة؛ ويعلن لها إعلان الحضور بقوله: حيّ على الصلاة، وتكراره للتنبّه التام، والإيقاظ الكامل، أو أن أحدهما لقوى المملكة الداخلية، والآخر لقوى المملكة الخارجية، لأنهما سلاّك هذا السفر مع الإنسان؛ وأدب السالك في هذا المقام هو أن يفهم قلبه، وقواه، ويفهم باطن قلبه قرب الحضور، حتى يتهيّأ له، ويراقب آدابه الصورية، والمعنوية، كمال المراقبة، ثم يعلن سرّ الصلاة، ونتيجتها بقوله: حيّ على الفلاح، وحيّ على خير العمل، كي يوقظ الفطرة، لأن الفلاح، والنجاح، هما السعادة المطلقة؛ وفطرة جميع البشر عاشقة للسعادة المطلقة، لأن الفطرة طالبة للكمال، والراحة؛

وحقيقة السعادة هي الكمال المطلق، والراحة المطلقة، وهي في الصلاة، التي هي خير الأعمال، تحصل قلبا، وقالبا، وظهورا، وبطونا، لأن الصلاة بحسب الظاهر، هي الذكر الكبير، والجامع، والثناء بالاسم الاعظم، المستجمع لجميع الشؤون الإلهية؛ ولهذا كان الأذان، والإقامة، مفتتحين بالله، ومختتمين به.

ويكرّر: الله أكبر في جميع حالات الصلاة وانتقالاتها؛ والتوحيدات الثلاثة، التي هي قرّة عين الأولياء، تحصل في الصلاة، وتمتزج فيها صورة الفناء المطلق، والرجوع التام؛ وبحسب الباطن، والحقيقة، هي معراج قرب الحق، وحقيقة الوصول إلى جمال الجميل المطلق، والفناء في ذاته المقدسة، التي تعشقها الفطرة، وتحصل بها الطمأنينة التامة، والراحة المطلقة، والسعادة العقلية التامة.

فإذا وصل السالك إلى ذلك المقام، يعلن الحضور، فقد قامت الصلاة، فلابد من أن يرى نفسه في حضرة مالك الملوك في العوالم الوجودية، وسلطان السلاطين، والعظيم المطلق؛ ويفهّم قلبه الأخطار التي في الحضرة، ويرجع الجميع إلى القصور، والتقصير الإمكاني؛ ويرد المحضر بكمال الانفعال، والخجلة، من عدم القيام بالأمر، وقدمي الخوف، والرجاء، ويفد على الكريم، ولا يرى لنفسه زادا، وراحلة؛ ويرى قلبه فارغا عن السلامة؛ ولا يحسب عمله من الحسنات، ولا يعدّه

أقل شيء، فإذا استحكمت هذه الحال في القلب، فالمرجو أن يقع موردا للعناية، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[1].

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إذا أذنت، وأقمت، صلّى خلفك صفان من الملائكة؛ وإذا أقمت صلّى خلفك صف من الملائكة**»[2].

وبالجملة، إذا رأى السالك نفسه إماما لملائكة الله، وقلبه إماما لقواه الملكية والملكوتية، وجمع بالأذان، والإقامة، قواه الملكية، والملكوتية؛ واجتمعت عليه ملائكة الله، فعليه أن يجعل القلب، وهو أفضل قوى الظاهر، والباطن، وشفيع سائر القوى إماما؛ ولما كان القلب ضامن لقراءة المأمومين، ووزرها على عهدته، فلا بدّ له من أن يحافظ عليه محافظة تامة، ويراقبه مراقبة جميلة، لكي يحفظ القلب على الحضرة، والحضور؛ ويقوم بأدب المقام المقدّس، ويغتنم هذا الاجتماع المقدس، ويعظّم توجّه ملائكة الله، وتأييدهم ايّاه، ويعرفه من النعم لوليّ النعمة الحقيقي، ويقدّم عجزه، وقصوره عن شكر هذه النعم العظيمة، إلى مقامه المقدس.

خامسًا: في آداب القيام

يرى أهل المعرفة القيام إشارة إلى التوحيد الأفعالي، وهو إشارة إلى

---

(١) النمل: ٦٢

(٢) الكافي: ج٣، ص٣٠٣، باب: بدا الاذان، ح٨

قيام العبد بالحق، ومقام قيّوميّة الحق، وهو التجلّي بالفيض المقدّس، والتجلي الفعلي؛ وتظهر في هذا المقام فاعلية الحق، وتستهلك جميع الموجودات في التجلي الفعلي، وتضمحل تحت كبريائه الظهوري، والأدب العرفاني للسالك في هذا المقام، أن يتذكر بهذه اللطيفة الإلهية، ويترك التعينات النفسية ما استطاع، ويذكر للقلب حقيقة الفيض المقدس، ويوصل إلى باطن القلب نسبة قيّومية الحق، وتقوّم الخلق بالحق، فإذا تمكنت هذه الحقيقة في قلب السالك تقع قراءته بلسان الحق، ويكون الذاكر والمذكور هو الحق، وينكشف له معنى «انت كما أثنيت على نفسك وأعوذ بك منك»[1] ببعض مراتبه، ويجد قلب العارف بعض أسرار الصلاة، وفي النظر إلى محل السجود، وهو التراب، والنشأة الأصلية، وخضوع الرقبة، ونكس الرأس، الذي هو لازم للخضوع، إشارة إلى الذلّ، والفقر الإمكاني، والفناء تحت عزّ الكبرياء وسلطانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[2].

إنّ آداب القيام، أن يرى السالك نفسه حاضرا في محضر الحق؛ ويعلم أن العالم محضر الربوبية؛ ويحتسب نفسه من حضّار المجلس بين يدي الله؛

(١) الكافي: ج٣، ص٣٢٤، باب: السجود والتسبيح، ح١٢؛ وفيه: « أنت كما أثنيت على نفسك أستغفرك وأتوب إليك»

(٢) فاطر: ١٥

ويوصل إلى قلبه عظمة الحاضر، والمحضر؛ ويفهم القلب أهمية مناجاة الحق تعالى، وخطره، ويحضّر قلبه قبل الورود في الصلاة بالتفكر، والتدبّر، ويفهمه عظمة المطلب، ويلزمه بالخضوع، والخشوع، والطمأنينة، والخشية، والخوف، والرجاء، والذل، والمسكنة، إلى آخر الصلاة؛ ويشارط القلب أن يراقب هذه الأمور، ويحافظ عليها، ويتفكر، ويتدبر، في أحوال أعاظم الدين، وهداة السبل، كيف كانت حالاتهم في الصلاة؛ فقد **كان علي بن الحسين**عليهما السلام «**إذا قام إلى الصلاة تغيّر لونه، فإذا سجد، لم يرفع رأسه حتى يرفض عرقا**»[1].

وعن مولانا زين العابدين عليه السلام أنه قال: «**وأمّا حقوق الصلاة، فأن تعلم أنها وفادة إلى الله، وأنك فيها قائم بين يدي الله، فإذا علمت ذلك، كنت خليقا أن تقوم فيها مقام العبد، الذليل، الراغب، الراهب، الخائف، الراجي، المسكين، المتضرع، المعظم مقام من يقوم بين يديه، بالسكينة، والوقار، وخشوع الأطراف، ولين الجناح، وحسن المناجاة له في نفسه، والطلب اليه في فكاك رقبته، التي أحاطت بها خطيئته، واستهلكتها ذنوبه، ولا قوة إلا بالله**»[2].

تفكر في حالات علي بن الحسين، ومناجاته الحق تعالى، وأدعيته

---

(١) الكافي: ج٣، ص٣٠٠، باب: الخشوع في الصلاة، ح٥

(٢) بحار الانوار: ج٨١، ص٢٤٨، ح٣٩، فأمّا حقوق الصلاة

اللطيفة، التي تعلّم عباد الله تعالى آداب العبودية، لا أقول: إن مناجاتهم عليهم السلام كانت لتعليم العباد، فإن هذا الكلام بلا مغزى، وباطل صادر من الجهل بمقام الربوبية، ومعارف أهل البيت؛ فإن خوفهم، وخشيتهم، كانت أكثر من جميع الناس، وقد تجلت عظمة الحق وجلاله في قلوبهم، ولكني أقول: لابد من أن يتعلم عباد الله منهم كيفية العبودية، والسلوك إلى الله تعالى؛ فإذا قرأوا أدعيتهم، ومناجاتهم، فلا تكون القراءة لقلقة اللسان، بل يتفكرون في كيفية معاملتهم الحق، وإظهارهم التذلل، والعجز، والحاجة، للذات المقدسة.

سادسًا: في سر النية وآدابها

أ) في حقيقة النية في العبادات

النية هي: التصميم، والعزم، على إتيان شيء، وإجماع النفس على إتيانه، بعد تصوّره، والتصديق بفائدته، والحكم بلزوم إتيانه؛ هذا التصميم، والعزم، الذي هو النيّة في لسان الفقهاء رحمهم الله، موجود في كل عمل بلا تخلّف؛ ومن غير الممكن، أن يوجد العمل الاختياري من دونه، وعلى الرغم من ذلك، فإن وسوسة الشيطان الخبيث، ودعابة الواهمة، تعميان هذا الأمر الضروري على الإنسان المسكين.

إن للشيطان حبائل، ومكائد كثيرة، تلزم الإنسان ترك أصل العمل،

وإذا يئس من تركه أصل العمل، ألزمه بالرياء، والعجب، وسائر المفسدات؛ وإذا لم يوفّق لهذا الأمر فيبطل عمله من طريق التظاهر بالقداسة، فيوهن عبادات جميع الناس في نظر الإنسان، وينسب الناس إلى عدم المبالاة، ثم يلزمه أن يصرف جميع عمره في النيّة مثلا، التي هي أمر ملازم للعمل، أو في التكبيرة، أو في القراءة، التي هي من الأمور العادية، ولا تحتاج إلى مؤونة.

عن عبد الله بن سنان قال: «ذكرت لأبي عبد الله عليه السلام رجلا مبتلى بالوضوء، والصلاة؛ وقلت: هو رجل عاقل؛ فقال أبو عبد الله عليه السلام: **وأيّ عقل له وهو يطيع الشيطان؟**؛ فقلت له: وكيف يطيع الشيطان؟ فقال: **سله، هذا الذي يأتيه من أيّ شيء هو؟** فإنه يقول لك: من عمل الشيطان»[1]. ولما كان هذا المسكين ليس بخارج عن الدين، فهو سفيه، لا عقل له لا محالة، ومطيع للشيطان، ومخالف للرحمن.

وفي رواية أخرى عن الباقر أو الصادق عليهما السلام قال: «**لا تعوّدوا الخبيث من أنفسكم نقض الصلاة، فتطمعوه؛ فإن الشيطان خبيث، معتاد لما عوّد، فليمض أحدكم في الوهم؛ ولا يكثرنّ نقض الصلاة؛ فإنه إذا فعل ذلك مرّات لم يعد اليه الشكّ. قال زرارة: ثم قال: إنما يريد الخبيث أن يطاع،**

(١) الكافي: ج١، ص١٢، باب: العقل والجهل، ح١٠

فإذا عصي لم يعد إلى أحدكم»[١]. وهذه المعالجات مهمّة في جميع الأمور التي تحصل من إلقاءات الشيطان، ومن دعابات الواهمة الشيطانية؛ وقد قررت في الأحاديث الشريفة لذلك أدعية؛ فمن أرادها فليراجع الوسائل، ومستدركها، في أواخر كتاب الخلل.

ب) في الإخلاص

حقيقة الإخلاص تصفية العمل عن شائبة سوى الله، وتصفية السرّ عن رؤية غير الحق تعالى، في جميع الأعمال الصورية، واللبّية، والظاهرية، والباطنية؛ وكمال الإخلاص ترك غيره مطلقا وجعل الإنّيّة والأنانية والغير والغيرية تحت قدميك، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[٢]؛ أي: أن الله تعالى قد اختار لنفسه الدين الخالص؛ فإذا كان لشيء من الحظوظ النفسانية، والشيطانية، دخل في الدين، فلا يكون خالصا؛ وما ليس بخالص، فإن الله لم يختره؛ وما كانت فيه شائبة الغيرية، والنفسانية، فهو خارج عن حدود دين الحق.

مراتب الإخلاص

قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ

(١) تهذيب الاحكام: ج٢، ص١٨٨، ح٧٤٧

(٢) الزمر: ٣

﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[1]؛ وفيها مرتبتا الإخلاص، وهما:

المرتبة الأولى: الهجرة الصورية التي تقع بالبدن، وهذه الهجرة إذا لم تكن خالصة لله بل كانت للحظوظ النفسانية، فليست هجرة إلى الله، ورسوله؛ وهذه هي مرتبة الإخلاص الصوري الفقهي.

والمرتبة الثانية: الهجرة المعنوية، والسفر الباطن، الذي مبدؤه البيت المظلم للنفس، وغايته الله تعالى، ورسوله، الذي مرجعه الحق، لأن الرسول، بما هو رسول، ليس له استقلال، بل هو آية، ومرآة، وممثل؛ فالهجرة اليه هجرة إلى الحق؛ فمحصلّ معنى الآية الشريفة بحسب هذا الاحتمال، هو: أنه من هاجر بالهجرة المعنوية، وسافر بالسفر القلبي العرفاني، وخرج من بيت النفس، ومنزل الأنانية، وهاجر إلى الله من دون رؤية نفسه، ونفسانيته، وحيثيّته، فجزاؤه على الحق تعالى.

ولعل المراد من الحديث النبوي المعروف: «**من أخلص لله أربعين صباحا جرت ينابيع الحكمة من قلبه إلى لسانه**»[2]، هو الإخلاص بجميع مراتبه، يعني: الإخلاص العملي، والصفاتي، والذاتي؛ ولعله يكون ظاهرا في الإخلاص الذاتي، وتكون بقية مراتب الإخلاص من لوازمه.

---

(١) النساء: ١٠٠

(٢) مصباح الشريعة: ٣٥٥

ويمكن تقسيم مراتب الإخلاص على النحو الآتي:

المرتبة الأولى: تصفية العمل، أعم من العمل القلبي، والقالبي، عن شائبة رضا المخلوق، وجلب قلوب المخلوقين، سواء كان للمحمدة، أو المنفعة، أو لغيرها؛ وفي مقابل هذه المرتبة إتيان العمل رياءً، وهذا هو الرياء الفقهي، وهو أحطّ، وأدنى مراتب الرياء؛ وصاحبه أرذل المرائين وأخسّهم.

المرتبة الثانية: تصفية العمل عن حصول المقاصد الدنيوية، والمآرب الزائلة الفانية؛ وإن كان الداعي هو أن الله تعالى يعطيها بواسطة هذا العمل، كإتيان صلاة الليل لتوسعة الرزق، وإتيان صلاة أول الشهر للسلامة من الآفات في ذلك الشهر، وإعطاء الصدقات للعافية، وسائر المقاصد الدنيوية.

المرتبة الثالثة: تصفيته عن الوصول إلى الجنّات الجسمانية، والحور، والقصور، وأمثالها من اللذات الجسمانية؛ وفي مقابلها عبادة الأجراء، المذكورة في الروايات الشريفة؛ وهذا أيضا في نظر أهل الله كسائر المكاسب، إلا أن أجرة عمل هذا الكاسب أكثر، وأعلى، إذا قام بالأمر، وخلصه عن المفسدات الصورية.

المرتبة الرابعة: أن يصفّي العمل عن خوف العقاب، والعذاب الجسماني الموعود؛ وفي مقابلها عبادة العبيد، المذكورة في الروايات؛ وليس لهذا المتاع قيمة في سوق أهل المعرفة.

المرتبة الخامسة: تصفية العمل عن الوصول إلى السعادات العقلية، واللذّات الروحانية، الدائمة، الأزلية، الأبدية، والانسلاك في سلك الكروبيين، والانخراط في زمرة العقول القادسة، والملائكة المقربين؛ وفي مقابلها العمل لهذا المقصد، وهذه الدرجة، وإن كانت عظيمة، لكن في مسلك أهل الله يعدّ سالكها كاسبا من الأجراء، وإن كان له فروق عن سائر الناس في المتجر، والمكسب.

المرتبة السادسة: تصفية العمل من خوف عدم الوصول إلى اللذات، والحرمان من هذه السعادات؛ وفي مقابلها العمل لهذه المرتبة من الخوف، وهذه في نظر أهل الله عبادة العبيد، وهي عبادة معللة.

المرتبة السابعة: تصفية العمل عن الوصول إلى لذات جمال الله، وبهجات أنوار السبحات غير المتناهية؛ وهي جنة اللقاء؛ وهذه المرتبة أي جنة اللقاء، هي من مهمات مقاصد أهل المعرفة، وأصحاب القلوب؛ وأيدي آمال النوع عنها قاصرة، والأوحدي من أهل المعرفة يتشرّف بشرف هذه السعادة، وهم أهل الحب، والجذبة، من كمّل أهل الله، وأصفياء الله؛ ولكن ليست هذه المرتبة هي كمال مرتبة الكمّل من أهل الله، بل هي من مقاماتهم المعمولة، والعادية لهم، وما في الأدعية، كالمناجاة الشعبانية من أن أمير المؤمنين وأولاده الطاهرين استدعوا هذه المرتبة من الله، أو أشاروا بكونهم متحققين بها، فليس من جهة أن مقاماتهم منحصرة بهذه المرتبة.

المرتبة الثامنة: تصفية العمل عن خوف الفراق، وما قاله أمير المؤمنين عليه السلام: «**كيف أصبر على فراقك**»[١]، فمن مقاماته المعمولة العادية، ومقامات أمثاله كذلك.

وبالجملة: إن تصفية العمل عن هاتين المرتبتين لازمة عند أهل الله؛ والعمل معها معلل، وليست خارجة عن الحظوظ النفسانية؛ وهذا كمال الخلوص، وبعدها مراتب أخرى خارجة عن حدود الخلوص، وداخلة تحت ميزان التوحيد، والتجريد، والولاية؛ لا يناسب المقام بيانها.

في تحذير منكري المقامات وطوائفهم

منكرو المقامات طوائف، منها:

الأولى: ولعلها الأكثر، تنكر المقامات كلّها، وترى أهلها على الباطل؛ فمن ذكرهم بشيء، أو دعا إلى مقاماتهم، يحسبونه شاعرا، ودعوته شطحا، ولا يرجى لهذه الطائفة من الناس أن يقدر أحد على توجيههم إلى نقصهم، وعيبهم، وإيقاظهم من نومهم الثقيل، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[٢] ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾[٣]. إنهم يوجّهون آيات اللقاء، وحب الله، على كثرتها إلى لقاء أشجار الجنة، ونسائها الجميلة، ولا

(١) اقبال الأعمال: ٣/٣٣٥

(٢) القصص: ٥٦

(٣) فاطر: ٢٢

أدري ماذا يصنع هؤلاء بفقرات المناجاة الشعبانية، حيث يقول:»**إلهي، هب لي كمال الانقطاع اليك؛ وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها اليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلّقة بعزّ قدسك. إلهي، واجعلني ممّن ناديته، فأجابك، ولاحظته، فصعق لجلالك**»[1].

فما هذه الحجب النورانية؟ وهل المراد من النظر إلى الحق النظر إلى أجاص الجنة؟ وهل معدن العظمة هو قصور الجنة؟ وهل تعلّق الأرواح بعزّ القدس، هو التعلق بذيل الحور العين لقضاء الشهوة؟.

الثانية: هم الذين لا ينكرون مقامات أهل المعرفة، ولا عناد لهم مع أهل الله؛ ولكن الاشتغال بالدنيا، وتحصيلها، والإخلاد إلى لذاتها الفانية، منعهم من الكسب العملي، والعلمي، والذوقي، والحالي؛ فمثلهم كمرضى يصدّقون مرضهم، ولكن شهوة البطن لا تدعهم يقدمون على الحمية، وشرب الدواء المرّ.

الثالثة: الذين اشتغلوا بالكسب العلمي، وتحصيل المعارف علما، ولكنهم اكتفوا من حقائق المعارف بالاصطلاحات، والألفاظ؛ وقعدوا عن جميع المقامات بالمقالات، ومن هؤلاء زمرة جعلوا هذه الاصطلاحات اللفظية وسيلة لكسب المعيشة، وصيد القلوب الصافية لعباد الله بالألفاظ

(١) اقبال الاعمال: ج٣/٢٩٩

الغارّة، والأقوال الجالبة؛ هؤلاء شياطين من الإنس وليس أضرارهم على عباد الله بأقل من إبليس؛ فعن الصادق عليه السلام: «**إذا رأيتم العالم محبّا للدنيا، فاتهموه على دينكم؛ فإن كل محبّ بشيء يحوط ما أحبّ. وقال: أوحى الله (تعالى) إلى داود عليه السلام: لا تجعل بيني وبينك عالما مفتونا بالدنيا، فيصدّك عن طريق محبّتي؛ فإن أولئك قطاع طريق عبادي المريدين؛ إن أدنى ما أنا صانع بهم، أن أنزع حلاوة مناجاتي من قلوبهم**»[1].

أيها العزيز، إن جميع العلوم عملية، حتى علم التوحيد، لها أعمال قلبية، وقالبية؛ فمن يرى المخلوق الضعيف، المسكين، المستكين، مؤثرا في دار التحقق؛ ويعده متصرفا في مملكة الحق؛ كيف يستطيع أن يرى نفسه غنيّا عن جلب قلوب المخلوقين، ويخلص عمله، ويصفّيه عن شرك الشيطان؟؛ فلا بدّ من أن تصفّى العين، والمنبع، حتى ينبع منها ماء صافٍ، وإلا لن ينبع الماء الصافي من العين الموحلة.

في درجات الإخلاص

للإخلاص درجات منها:

الدرجة الأولى: تصفية العمل عن رؤية استحقاق الثواب والأجر، وفي مقابله شوبه بطلب الأجر، ورؤية استحقاق الأجرة، والثواب؛

---

(١) الكافي: ج١/٤٦، باب: المستأكل بعمله، ح ٤

وهذا لا يخلو عن مرتبة من الإعجاب بالعمل؛ ولابدّ للسالك من تخليص نفسه منه؛ فالإنسان المسكين ما دام في حجاب رؤية أعمال نفسه، ويراها من عند نفسه، ويرى نفسه متصرفا في الأمر، فلا ينجو من هذا المرض، ولا ينال هذه التصفية، والتخليص.

لابدّ للسالك من أن يجهد، ويفهم القلب، بالرياضات القلبية، والسلوك العقلي، والعرفاني، أن جميع الأعمال من الهبات الإلهية، والنعم، التي أجراها الحق تعالى على يد العبد؛ فإذا تمكن التوحيد الفعلي في قلب السالك، فلا يرى العمل من عند نفسه، ولا يطلب الثواب، بل يرى الثواب تفضّلا، والنعم ابتدائية؛ فمن دعاء الإمام السجاد عليه السلام: «**لك الحمد على ابتدائك بالنعم الجسام، والهامك الشكر على الإحسان**»[1].

الدرجة الثانية: تصفية العمل من الاستكثار، والفرح به، والاعتماد، وتعلق الخاطر به؛ إن الاستكثار يمنع السالك من قافلة السالكين إلى الله، ويحبسه في سجن الطبيعة، وهذا ينبت من الشجرة الخبيثة الشيطانية، ومنشؤه حب النفس، الذي هو إرث من الشيطان؛ فعن موسى بن جعفر عليهما السلام أنه قال لبعض ولده: «**يا بني، عليك بالجدّ؛ ولا تخرجنّ نفسك من حد التقصير في عبادة الله عزّ وجلّ**»[2].

---

(١) الصحيفة السجادية: ١٥٢

(٢) الكافي: ج٢/٧٢، باب: الاعتراف بالتقصير، ح١

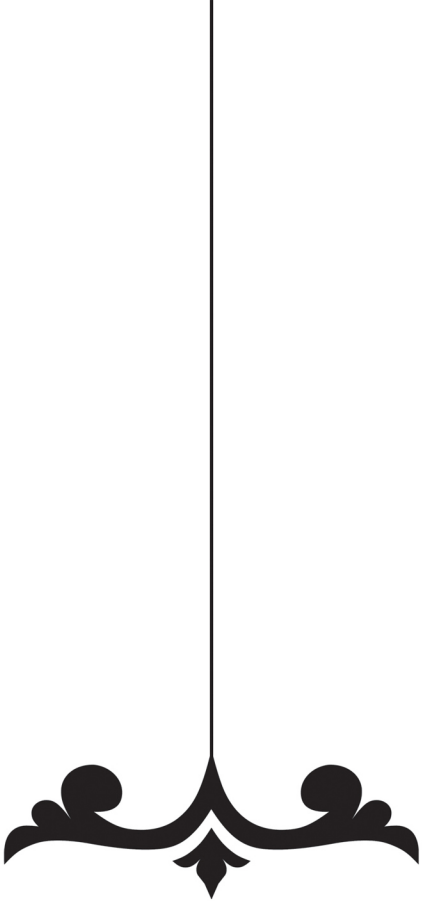

الفصل الثالث

في آداب القراءة في الصلاة

أولا: مرتبتا القراءة

للقراءة في هذا السفر الروحاني، والمعراج الإلهي، مرتبتان:

إحداهما: ألا يشتغل القارئ إلا بتجويد القراءة، وتحسين العبارة؛ ويكون همّه التلفّظ بهذه الكلمات فقط، وتصحيح مخارج الحروف، حتى يأتي بتكليف، ويسقط عنه أمر؛ ومعلوم أن تكاليف هؤلاء موجبة للكلفة، والمشقة، وقلوبهم منها منضجرة؛ وبواطنهم عنها منحرفة؛ وليس لهم حظ من العبادة؛ إلا أنهم ليسوا معاقبين بعقاب تاركها، إلا أن يتفضّل عليهم من خزائن الغيب، ويقعوا موردا للإحسان، والإنعام، بمجرد لقلقة اللسان.

والأخرى: الذين يرون الصلاة وسيلة لتذكر الحق، ويعدّون القراءة تحميدا، وثناء على الحق، ولهذه الطائفة مراتب كثيرة، يطول ذكرها؛ ولعله أشير إلى هذه الطائفة في الحديث الشريف القدسي: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي فنصفها لي ونصفها لعبدي؛ فإذا قال: بسم الله الرحمن الرحيم، يقول الله: ذكرني عبدي؛ وإذا قال: الحمد لله، يقول الله: حمدني عبدي، وأثنى علي؛ وهو معنى: سمع الله لمن حمده. وإذا قال:**

الرحمن الرحيم، يقول الله: عظّمني عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين، يقول الله: مجّدني عبدي، وفي رواية فوّض إليّ عبدي؛ وإذا قال: ايّاك نعبد وإياك نستعين، يقول الله: هذا بيني وبين عبدي، وإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم، يقول الله: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»[1].

ثانيا: أركان العبودية في القراءة

أقام الحق تعالى آداب العبودية في القراءة على أربعة اركان:

الركن الأول: التذكّر، ولا بد من أن يحصل في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وينظر العبد السالك إلى جميع دار التحقق، بالنظر الإسمي، الذي هو الفناء في المسمّى؛ ويعوّد القلب أن يكون طالبا للحقّ، ومحبّا له، في جميع ذرّات الممكنات، ويحصل هذا المقام من الخلوة مع الحق، وشدّة التذكر، والتفكر، في الشؤون الإلهية، حتى ينتهي إلى حدّ يكون قلب العبد حقانيا؛ ولا يكون في جميع زوايا قلبه اسم سوى الحق. وهذه مرتبة من الفناء في الألوهية، والقلوب المنكوسة القاسية للجاحدين لا تستطيع إنكارها بهذا البيان الذي بيّنّاه الا أن يكون جحوده جحودا ابليسيا، فإن تلك القلوب والعياذ بالله متنفّرة بالطبع عن اسم الحق وذكره وتنقبض إذا جرى حرف من المعارف الإلهية أو ذكر من أسماء الله ولا يفتحون

(١) قريب منه في أمالي الصدوق: ٢٣٩ ـ ٢٤٠، والحديث عن سورة الفاتحة.

بصيرتهم إلا إلى الشهوات البطنية والفرجية، وفي هذه الطائفة أفراد لا يعتقدون للأنبياء والأولياء عليهم السلام أيضا سوى المقامات الجسمانية والجنة الجسمانية التي يُقضى فيها الوطر الحيواني؛ ومن الممكن أن يستشهد هؤلاء بشواهد من أدعية الانبياء وأهل بيت العصمة عليهم السلام بأنهم ايضا كانوا يطلبون الحور والقصور وهذا من قصور هذه الطائفة حيث أنهم لم يفرقوا بين حبّ كرامة الله حيث يكون النظر فيه إلى كرامة المحبوب واعطائه الذي هو علامة المحبة والعناية وبين حب الحور والقصور وأمثالها استقلالا، الذي هو في خميرة الشهوة الحيوانية، فحب كرامة الله هو حب الله ويسري إلى الكرامة والعناية بالتبع.

الركن الثاني: التحميد، وهو في قول المصلّي: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

إن المصلّي إذا تحقق بمقام الذكر، ورأى جميع ذرّات الكائنات، وعوالي الموجودات، ودوانيها، أسماء إلهية، وأخرج عن قلبه جهة الاستقلال، ونظر إلى موجودات عوالم الغيب، والشهود، بعين الاستظلال؛ تحصل له مرتبة التحميد، ويعترف قلبه أن جميع المحامد من مختصات الذات الأحدية؛ وليست لسائر الموجودات فيها شركة، لأنه ليس لها كمال من عند أنفسها، حتى يقع الحمد، والثناء لها، ويأتي البيان التفصيلي لهذه اللطيفة الإلهية في تفسير هذه السورة المباركة إن شاء الله.

الركن الثالث: التعظيم، وهو يحصل في **الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ**. إن العبد السالك إلى الله، إذا حصر المحمدة في ركن التحميد على الحق تعالى، وسلب الكمال، والتحميد، عن الكثرات الوجودية، يقرب من أفق الوحدة، وتعمى بالتدريج عينه الرائية للكثرة، وتتجلى لقلبه الصورة الرحمانية، التي هي بسط الوجود، والصورة الرحيمية، التي هي بسط كمال الوجود؛ ويصف الحق بالإسمين المحيطين، الجامعين، المضمحلة فيهما الكثرات؛ فيحصل للقلب بواسطة التجلي الكمالي الهيبة الحاصلة من الجمال بتنزل عظمة الحق في قلبه، وإذا تمكنت هذه الحالة في قلبه ينتقل إلى الركن الرابع.

الركن الرابع: مقام التقديس، الذي هو حقيقة التمجيد؛ أي: تفويض الأمر إلى الله، وهو رؤية مقام مالكية الحق، وقاهريته، وزوال غبار الكثرة، وانكسار أصنام كعبة القلب، وظهور مالِكيّة بيت القلب، والتصرف فيه، بلا مزاحمة الشيطان؛ ويصل في هذه الحالة إلى مقام الخلوة. ولا يكون بين العبد والحق حجاب، وتقع ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ في تلك الخلوة الخاصة، ومجمع الأنس، ولهذا قال: هذا بيني وبين عبدي، وإذا اشتملته العناية الأزلية، وأفاق، يسأله الاستقامة في هذا المقام، والتمكين في حضرته، بقوله: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، ولهذا فسّر ﴿ اهْدِنَا﴾ بـ (ألزمنا)، وأدّبنا، وثبّتنا، وهذا لأولئك الذين خرجوا من

الحجاب، ووصلوا إلى المطلوب الأزلي؛ وأما أمثالنا، نحن أهل الحجاب، فلا بد من أن نسأل الهداية من الحق تعالى بمعناها المعروف.

في الحديث الشريف: «**فإذا كبّرت فاستصغر ما بين العلى والثرى دون كبريائه**»[1] «فاعتبر أنت قلبك حين صلاتك، فإن كنت تجد حلاوتها، وفي نفسك سرورها، وبهجتها، وقلبك مسرورا بمناجاته، ملتذا بمخاطباته، فاعلم أنه قد صدّقك في تكبيرك، وإلا فقد عرفت من سلب لذة المناجاة، وحرمان حلاوة العبادة، أنه دليل على تكذيب الله لك، وطردك عن بابه»[2].

وعلى هذا المقياس، ففي كل حال من الأحوال الصلاتية، وكل فعل من أفعالها، حق لله تعالى لابد للعبد من القيام به، وهو آداب العبودية في ذلك المنزل، وللعبد حظ، ونصيب، يعطيه الحق باللطف الخفي، والرحمة الجلية، بعد قيام العبد بآداب العبودية، وإذا رأى نفسه من هذه المقامات الإلهية محروما، فيعلم أنه لم يقم بآداب العبودية؛ وعلامة ذلك للمتوسطين أن لا تتذوّق ذائقة القلب لذة المناجاة، وحلاوة العبادات، ويحرم عن البهجة، والسرور، والانقطاع إلى الحق.

---

(١) مصباح الشريعة/ ٧٨

(٢) المحجة البيضاء: ١/٣٨٥

ثالثا: في آداب الاستعاذة

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ * إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾[1]؛ فمن الآداب المهمة للقراءة، ولاسيما القراءة في الصلاة، الاستعاذة من الشيطان الرجيم، الذي هو شوكة طريق المعرفة، ومانع السير، والسلوك، إلى الله؛ ويفاد من الآيات القرآنية، والأحاديث الشريفة للمعصومين عليهم السلام آداب كثيرة منها:

الأول: الخلوص، وقد نقله سبحانه عن الشيطان أنه قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[2]؛ وهذا الإخلاص أعلى من الإخلاص العملي، وأعم من العمل الجوانحي، أو الجوارحي؛ لأن المخلَص بصيغة المفعول؛ ولو كان المنظور هو الإخلاص العملي، لكان التعبير بصيغة الفاعل؛ فالمقصود من هذا الإخلاص هو خلوص الهوية الإنسانية بجميع شؤونها الغيبية والظاهرية؛ والإخلاص العملي من رشحاته، وهذه الحقيقة، واللطيفة الإلهية، وإن كانت لا تحصل للعامة في ابتداء السلوك إلا بالرياضات العملية الشديدة، ولاسيّما

(١) النحل ٩٨ – ١٠٠

(٢) ص: ٨٢ – ٨٣

الرياضيات القلبية، التي هي أصلها، كما أشير اليه في الحديث المشهور: «**من أخلص لله أربعين صباحا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**»[١]؛ فمن أخلص أربعين صباحا (بمقدار تخمير طينة آدم، والربط بينهما معلوم عند أهل المعرفة، وأصحاب القلوب) نفسه لله، وأخلص أعماله القلبية، والقالبية، للحق تعالى، وكان قلبه إلهيا، ولا ينفجر من القلب الإلهي سوى عيون الحكمة، فيكون لسانه، الذي هو أكبر ترجمان للقلب، ناطقا بالحكمة.

في أول الأمر يكون إخلاص العمل موجبا لخلوص القلب، فإذا صار القلب خالصا تظهر على مرآة القلب أنوار الجلال، والجمال، التي أودعت بالتخمير الإلهي من طينة آدم، وتتجلى، وتسري من باطن القلب إلى ظاهر ملك البدن.

وبالجملة، الخلوص الذي يوجب الخروج من تحت السلطنة الشيطانية: هو خلوص هوية الروح، وباطن القلب لله تعالى، وإلى هذا الخلوص يشير أمير المؤمنين عليه السلام في المناجاة الشعبانية: «**إلهي هب لي كمال الانقطاع اليك**»[٢].. فإذا وصل القلب إلى هذه المرتبة من الإخلاص، ينقطع بالكلية عما سوى الله، ولا يتطرق في مملكة وجوده غير طريق

(١) مصباح الشريعة/٣٥٥

(٢) اقبال الاعمال: ج٣/٢٩٩

الحق، ويقبله الحق تعالى في معاذه، ويقع في الحصن الحصين للألوهية، قال تعالى في الحديث القدسي: «**كلمة لا إله الا الله حصني فمن دخل في حصني أمن من عذابي**»[1].

وللدخول في حصن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ مراتب، وللأمن من العذاب مراتب، فمن وقع بباطنه، وظاهره، وقلبه، وقالبه، في حصن الحق، وصار في معاذه، فقد أمن من جميع مراتب العذاب؛ وأعلى مراتبها عذاب الاحتجاب عن جمال الحق، وفراق وصال المحبوب جلّ جلاله، فمن حصل له هذا المقام، فهو عبد الله على الحقيقة، ويقع تحت قباب الربوبية، ويكون الحق تعالى متصرفا في مملكته، ويخرج عن ولاية الطاغوت؛ وهذا المقام من أعز مقامات الأولياء، وأخص مدارج الأصفياء، وليس لسائر الناس منه حظ.

إن تذكرنا هذه المقامات من جهة أننا لا نجوّز إنكارها، ونرى ذكر الأولياء، ومقاماتهم، دخيلا في تصفية القلوب، وتخليصها، وتعميرها؛ لأن ذكر أصحاب الولاية، والمعرفة بالخير، يوجب المحبة، والتواصل، والتناسب؛ وهذا التناسب يوجب التجاذب، وهذا يسبّب التشافع، الذي ظاهره الإخراج من ظلمات الجهل إلى أنوار الهداية، والعلم،

(١) الامال: ٣٠٦/ح٣٤٩.

وباطنه الظهور بالشفاعة في العالم الآخر، لأن شفاعة الشافعين لا تتحقق من دون تناسب، وتجاذب باطني.

وبالجملة، لا يجوز للمؤمنين، والمخلصين، أن يغضّوا النظر عن جميع مراتب الإخلاص، ويقنعوا بالإخلاص الصوري، العملي، والخلوص الظاهري الفقهي، لأن الوقوف في المنازل من أعمال إبليس، فهو قاعد على سبيل الإنسان والإنسانية ويمنعه بأية وسيلة كانت من الوصول إلى المدارج، فلا بدّ من علوّ الهمة، وتقوية الإرادة، فلعل هذا النور الإلهي، واللطيفة الربانية، تسري من الصورة إلى الباطن، ومن الملك إلى الملكوت؛ والإنسان إذا نال أي مرتبة من الإخلاص، يكون بمقدارها في لواذ الحق، وتتحقق الاستعاذة، وتقصر يد تصرّف الشيطان عن الإنسان.

الثاني: استعاذة القلب، فإذا استحكم في القلب أصل التوحيد الفعلي للحق، وسقي بماء العلم التوأم بالعمل اللطيف، الذي يقرع باب القلب، تكون نتيجته تذكر مقام الألوهية، ويصفى القلب بالتدريج للتجلي الفعلي للحق. فإذا خلت الدار من الغدّار، والعش من الغش، يتصرف في البيت صاحبه، وتأخذ يد ولاية الحق القوى الملكوتية، والملكية، إلى تصرفه وحكومته؛ وترتحل الشياطين أجمع من هذه المرحلة.

الثالث: استعاذة الروح، واستعاذة السر، وسائر مراتب الاستعاذة لا

تناسب هذه الأوراق.

الرابع: الإيمان، وهو غير العلم، الذي حصل بالبرهان الحكمي، فإن أردنا أن نخرج من تصرّف الشيطان، ونقع تحت عوذة الحق، لابد من أن نوصل الحقائق الإيمانية إلى القلب بالارتياض القلبي الشديد، ودوام التوجّه، وكثرته، وشدّة المراودة، والخلوة؛ فإذا صار القلب إلهيًا، يخلو من تصرّف الشيطان، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[1]؛ فالمؤمنون الذين يتولّى الحق تعالى ظاهرهم، وباطنهم، وسرّهم، وعلانيتهم، خالصون من تصرّفات الشيطان، وداخلون في سلطان الرحمن، ويخرجهم من جميع مراتب الظلمات إلى النور المطلق؛ فينتقلون من ظلمة المعصية، والطغيان، وكدورات الأخلاق الرذيلة، والجهل، والكفر، والشرك، ورؤية النفس، وحب النفس، والعجب، إلى نور الطاعة، والعبادة، وأنوار الأخلاق الفاضلة، ونور العلم، وكمال الإيمان، والتوحيد، ورؤية الله، وطلب الله، وحب الله.

الخامس: التوكل، وهو تفويض الأمور إلى الحق، الذي يحصل من إيمان القلب بالتوحيد الفعلي؛ فإذا لم ير العبد السالك مفزعا، وملاذا، غير

(١) البقرة: ٢٥٧

الحق تعالى، وعلم أن التصرّف في الأمور، منحصر في الذات المقدسة، تحصل في القلب حالة الانقطاع، والتوكل؛ وتصير استعاذته حقيقية، فإذا لجأ بالحقيقة إلى حصن الربوبية، والألوهية الحصين، فيأخذه لا محالة في كنف ظلّه، ورحمته الكريمة؛ إنه ذو فضل عظيم.

إنّ الاستعاذة هي حالة نفسانية، تحصل من العلم الكامل البرهاني بمقام التوحيد الحق الفعلي، والإيمان به؛ بمعنى: أنه بعدما فهم من طريق العقل المنور بالبرهان المتين الحكمي، والشواهد النقلية المفادة من النصوص القرآنية، وإشارات الكتاب الإلهي، والأحاديث الشريفة، وبدائعها، أن السلطنة الإيجادية، والاستقلال في التأثير، بل أصل التأثير، منحصرة بالذات الإلهية المقدسة، وليس لسائر الموجودات فيها شركة، لابد له من تنبيه القلب بها، وأن يكتب بقلم العقل على لوحة القلب حقيقة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ و(لا مؤثّر في الوجود إلا الله)؛ فإذا آمن القلب بهذه اللطيفة الإيمانية، والحقيقة البرهانية، تحصل حالة انقطاع، والتجاء؛ وإذا وجد الشيطان قاطع طريق الإنسانية، والعدو القوي لنفسه، تحصل له حالة الاضطرار، وهذه الحالة القلبية هي حقيقة الاستعاذة، ولما كان اللسان ترجمان القلب، يظهر بلسانه تلك الحالة القلبية مع كمال الاضطرار، والاحتياج؛ ويقول على الحقيقة: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

رابعا: في أركان الاستعاذة

وهي أربعة: المستعيذ، والمستعاذ، والمستعاذ به، والمستعاذ من أجله.

الركن الأول: المستعيذ

وهو الحقيقة الإنسانية من أول منزل السلوك إلى الله إلى منتهى النهاية للفناء الذاتي، فإذا تم الفناء المطلق هلك الشيطان، وتمت الاستعاذة.

إنّ الإنسان قبل شروعه في السلوك إلى الله، ليس مستعيذا؛ وبعد تمام سيره، وبعد أن زالت آثار العبودية، ونال الفناء الذاتي المطلق، فلا يبقى أثر من الاستعاذة، والمستعاذ منه، والمستعيذ؛ ولا يكون في قلب العارف شيء سوى الحق، والسلطنة الإلهية، وليس له خبر من قلبه، ولا من نفسه أيضا؛ و(أعوذ بك منك) ليس في هذا المقام؛ فإذا أتاه الصحو، والأنس، والرجوع، تكون الاستعاذة حقيقة، ولكن لا كاستعاذة السالك؛ ولهذا أمر الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم بالاستعاذة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾[1] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[2]. و﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾[3].

---

(١) الفلق: ١

(٢) الناس: ١

(٣) المؤمنون: ٩٧ – ٩٨

الركن الثاني: المستعاذ منه

وهو إبليس، والشيطان الرجيم، الذي يمنع الإنسان بحبائله المتنوعة، من الوصول إلى المقصد. إنّ ما كان في هذا السير إلى الله، مانعا، وشوكا في الطريق، فهو الشيطان، أو مظاهره، التي أعمالها عمل الشيطان؛ وما كان من عوالم الغيب، والشهود، والعوارض الحاصلة للنفس، وحالاتها المختلفة، حجابا لجمال المحبوب، سواء أكان من العوالم الملكية الدنيوية، كالفقر، والغنى، والصحة، والمرض، والقدرة، والعجز، والجهل، والآفات، والعاهات، وغيرها؛ أو كان من العوالم الغيبية، التجردية، والمثالية، كالجنة، وجهنم، والعلم المتعلق بها، حتى العلوم العقلية البرهانية الراجعة إلى توحيد الحق وتقديسه؛ كل ذلك من حبائل إبليس، التي تمنع الإنسان عن الحق، والأنس به، والخلوة معه، وتشغله بذلك؛ حتى الاشتغال بالمقامات المعنوية، والوقوف في المدارج الروحانية، الذي ظاهره الوقوف في الصراط الإنساني، وباطنه الوقوف في صراط الحق، الذي هو جسر روحاني لجهنم الفراق، والبعد؛ وينتهي إلى جنة اللقاء. وهذا الجسر مخصوص لطائفة قليلة من أهل المعرفة، وأصحاب القلوب، وهذا الاشتغال من الحبائل العظيمة لإبليس الأبالسة، ولابد من الاستعاذة منه بذات الحق المقدسة جلّ شأنه.

وبالجملة، ما منعك عن الحق، وحجبك عن جمال المحبوب الجميل،

فهو شيطانك؛ سواء أكان في صورة الإنسان، أو الجن؛ وكل ما يمنعك به الشياطين عن هذا المقصد، والمقصود، فهو حبائل الشيطان، سواء كان من سنخ المقامات، والمدارج، أو العلوم والكمالات، أو الحرف والصنائع، أو العيش والراحة، أو المشقة والذلّة، أو غيرها؛ وهذه هي الدنيا المذمومة، وحبائل الشيطان، ولابد من الاستعاذة منها؛ وما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه كان يقول: «**أعوذ بوجه الله الكريم، وبكلمات الله التي لا يجاوزهنّ بر، ولا فاجر، من شر ما ينزل من السماء، وما يعرج فيها، وشر ما ينزل من الأرض، وما يخرج منها، ومن شر فتن الليل، والنهار، ومن شر طوارق الليل والنهار، إلا طارقا يطرق بخير**»[1] فلعل المقصود منه هذا المعنى.

الركن الثالث: المستعاذ به

تختلف الاستعاذة، والمستعيذ، والمستعاذ منه، والمستعاذ به، بحسب مقامات السائرين، ومدارجهم، ومنازل سالكي الحقيقة؛ ويمكن أن تكون سورة الناس الشريفة إشارة إلى ذلك، حيث يقول تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾[2]؛ فيستعيذ

(١) بحار الانوار: ج٦٠/٢٨٣، ح١٧٧

(٢) الناس – ١ — ٣.

السالك بمقام الربوبية من مبادئ السلوك إلى حدود مقام القلب، ويمكن أن تكون هذه الربوبيّة، الربوبية الفعلية، فتطابق (**أعوذ بكلمات الله التامات**)، فإذا انتهى سير السالك إلى مقام القلب، فيظهر في القلب مقام السلطنة الإلهية، فيستعيذ في هذا المقام بمقام ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ من شر تصرفات إبليس القلبية، وسلطنته الباطنية الجائرة، كما يستعيذ في المقام الأول من شر تصرفاته الصدرية، ولعل ما قاله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾[1]، على الرغم من أن الوسوسة في القلوب، والأرواح، أيضا من الخناس؛ لأن الأنسب في مقام التعريف، أن يكون التعريف بالشأن العمومي، والصفة الظاهرة عند الجميع.

فإذا تجاوز السالك مقام القلب إلى مقام الروح، الذي هو من النفخة الإلهية، واتصاله بالحق أشّد من اتصال شعاع الشمس بالشمس، فيشرع في هذا المقام مبادئ الحيرة، والهيمان، والجذبة، والعشق، والشوق؛ فيستعيذ في هذا المقام بـ ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾؛ فإذا ترقى من هذا المقام، وكانت الذات بلا مرآة الشؤون نصب عينيه، أي: يصل إلى مقام السر، فالمناسب له «**أعوذ بك منك**»[2].

والاستعاذة باسم الله لجامعيته، تناسب جميع المقامات، وهي في

---

(١) الناس: ٥

(٢) الأمالي: ١٥٨، باب: ما ضمن الله تعالى للمؤمن، ح: ٢٦٥

الحقيقة الاستعاذة المطلقة، وسائر الاستعاذات استعاذات مقيّدة.

الركن الرابع: المستعاذ له (غاية الاستعاذة)

إن ما هو المطلوب بالذات للإنسان المستعيذ، هو من نوع الكمال، والسعادة، والخير؛ ويتفاوت ذلك بحسب مراتب السالكين، ومقاماتهم، تفاوتا كثيرا؛ فالسالك ما دام في بيت النفس، وحجاب الطبيعة، غاية سيره حصول الكمالات النفسانية، والسعادات الخسيسة الطبيعية؛ هذا في مبادئ السلوك؛ فإذا خرج من بيت النفس، وذاق شيئا من المقامات الروحانية، والكمالات التجردية، فيصير مقصده أعلى، ومقصوده أكمل، فيلقي المقامات النفسانية وراء ظهره، وتكون قبلة مقصوده حصول الكمالات القلبية، والسعادات الباطنية؛ فإذا أفلت عنان السير عن هذا المقام، ووصل إلى منزل السر الروحي، تبرز في باطنه مبادئ التجليات الإلهية، ويكون لسان روحه في بادئ الأمر: وجّهت وجهي لوجه الله، ثم بعد ذلك: وجهت وجهي لأسماء الله، أو لله، ثم بعد ذلك: وجهت وجهي له، ولعل الجهة في وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض راجعة إلى المقام الأول بمناسبة الفاطرية.

خامسا: في آداب التسمية

عن الرضا عليه السلام حين سئل عن تفسير البسملة: «**معنى قول القائل بسم**

الله: أي اسم على نفسي سمة من سمات الله، وهي العبادة. قال الراوي: فقلت: ما السمة ؟ قال: **العلامة**»[1].

إن الدخول في منزل التسمية لا يتيسر للسالك إلا بعد الدخول في منزل الاستعاذة، واستيفاء حظوظ ذاك المنزل؛ فإنْ أفاق بتوفيق الله من نوم الغفلة، وأحسّ لزوم السير، والسلوك إلى الله، بنور الفطرة الإلهية، وأنوار التعليمات القرآنية، وسنن الهداة إلى طريق التوحيد في منزل اليقظة وأدرك القلب موانع السير، فتحصل له حالة الاستعاذة بالتدريج، وبعد ذلك يدخل منزل الاستعاذة بالتوفيق الرباني؛ فإذا تطهّر من القذارات الشيطانية، فيتجلى في مرآة السالك من تلك الأنوار الإلهية بحسب ما يناسبه بمقدار تطهيره الباطن والظاهر. في أول الأمر تكون الأنوار مشوبة بالظلمات، بل تكون الظلمة غالبة، ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾؛ وبالتدريج كلما قوي السلوك، غلب النور على الظلمة بمقدار قوته، وتظهر سمات الربوبية في السالك، فتصير تسميته حقيقية إلى حد ما؛ وترتحل العلامات الشيطانية، وهي في الظاهر المخالفة لنظام المدينة الفاضلة؛ وفي الباطن العجب، والاستكبار، وأمثالها؛ وفي باطن الباطن رؤية النفس، وحبها، وأمثالها، ترتحل بالتدريج عن مملكة باطن السالك،

(١) التوحيد: ٢٣٠/باب: معنى بسم الله، ح١

وظاهره، وتسكن في مكانها سمات الله، وهي في الظاهر حفظ نظام المدينة الفاضلة؛ وفي الباطن العبودية، وذلة النفس؛ وفي باطن الباطن حب الله، ورؤية الله؛ فإذا صارت المملكة إلهية، وخلت من شياطين الجن، والإنس؛ وظهرت فيها السمات الإلهية، يتحقق السالك بنفسه بمقام الإسمية؛ فأول تسمية السالك هي الاتصاف بالسمات الإلهية، وعلاماتها، ثم يترقى عن هذه المرتبة، ويصل بنفسه إلى مقام الاسمية؛ وهذا أوائل قرب النافلة، فإذا تحقق بقرب النافلة، نال تمام الاسمية، فلا يبقى بعد شيء من العبد، والعبودية؛ وإذا وصل أحد إلى هذا المقام تقع جميع صلاته بلسان الله، وهذا يتحقق في القليل من الأولياء؛ أما المتوسطون أمثالنا، الناقصون، فالأدب أن نسمَ القلب بسمة العبودية، وكيّها عند التسمية؛ ونعلن القلب من سمات الله، والعلامات الإلهية؛ وألا نكتفي بلقلقة اللسان؛ فلعلنا تشملنا نبذة من العنايات الأزلية، وتجبر ما سبق منا، وينفتح لقلوبنا طريق إلى تعلّم الأسماء، ويحصل سبيل إلى المقصود.

ويمكن أن يكون المقصود من السمة من سمات الله في هذا الحديث الشريف، سمة الرحمة الرحمانية، والرحمة الرحيمية، وعلامتها؛ والرحمة الرحمانية، والرحيمية شاملة لجميع دار الوجود، حتى أن الرحمة الرحيمية التي جميع هدايات الهادين إلى طريق التوحيد من تجلياتها، تشمل الجميع

إلا أن الخارجين عن فطرة الاستقامة بسوء اختيارهم، حرموا أنفسهم منها، لأن الرحمة غير شاملة لهم؛ وفي عالم الآخرة، وهي يوم حصاد ما زرع من الحسنة، والسيئة، فالذين زرعوا السيئة فهم بأنفسهم قاصرون عن الإفادة من الرحمة الرحيمية.

وبالجملة، إذا أراد السالك أن تكون تسميتة حقيقيّة، فلا بد له من أن يوصل مراحم الحق تعالى إلى قلبه، ويتحقق بالرحمة الرحمانية، والرحيمية؛ وعلامة حصول نموذج منها في القلب، أنه ينظر إلى عباد الله بنظر العناية، والتلطف؛ ويطلب الخير، والصلاح، للجميع؛ وهذا هو نظر الأنبياء العظام، والأولياء الكمل عليهم السلام؛ غاية الأمر أن لهم نظرين، أحدهما: النظر إلى سعادة المجتمع، ونظام الأسرة، والمدينة الفاضلة؛ والآخر النظر الشخصي، ولهم علاقة كاملة بهاتين السعادتين؛ والقوانين الإلهية التي تؤسس، وتنفّذ، وتكشف، وتجري بأيديهم، يراعون فيها هاتين السعادتين؛ حتى إجراء القصاص، والحدود، والتعزيرات، وأمثالها، التي تبدو في النظر أنها أسّست، وتقنّنت مع لحاظهم نظام المدينة الفاضلة، قد لوحظ فيها كلتا السعادتين؛ لأن لهذه الأمور دخالة كاملة في التربية الروحية في الأكثر، وإيصالهم إلى السعادة، حتى الذين ليس لهم نور الإيمان، والسعادة، فيقتلونهم بالجهاد، وأمثاله، كيهود بني قريظة؛ فهذا القتل لهم أيضا صلاح، وإصلاح؛ ويمكن أن يقال: إن قتلهم كان

من الرحمة الكاملة للنبي الخاتم؛ لأنهم مع وجودهم في هذا العالم، يهيّئون لأنفسهم في كل يوم أنواع العذاب، الذي لا يقابل يوما من عذاب الآخرة، وعسرها، جميع مدة الحياة في هذا العالم.

فإذا أردت أن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، فالق عباد الله بقلب مملوء من المحبة، وفؤاد عطوف؛ وكن طالبا لخيرهم من صميم القلب، فإذا وجدت قلبك رحمانيا، ورحيميا، فقم بالأمر، والنهي، والإرشاد، كي تلين برقة عطف قلبك القلوب القاسية؛ وهذا الوادي غير وادي البغض في الله، والحب في الله، فلا بد للإنسان من أن يعادي أعداء الدين.

سادسا: في سورة الحمد

أ) في فضل السورة المباركة

وردت روايات شريفة في ذلك، منها:

ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لجابر بن عبد الله الانصاري (رضي الله عنه): «**يا جابر، ألا أعلّمك أفضل سورة أنزلها الله في كتابه؟** فقال جابر: بلى، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، علّمنيها. قال: **فعلّمه الحمد أم الكتاب**، ثم قال: يا جابر، **ألا أخبرك عنها** ؟ قال: بلى، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أخبرني. قال: **هي شفاء من كل داء إلا السام**»[1].

(١) تفسير العياشي: ج ١/٣٠ /ح٩

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال، قال صلى الله عليه وآله: «إن الله تعالى قال لي: يا محمد، ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ فأفرد الامتنان عليّ بفاتحة الكتاب، وجعلها بإزاء القرآن، وإن فاتحة الكتاب أشرف ما في كنوز العرش، وإن الله خصّ محمدا وشرّفه بها، ولم يشرك فيها أحدا من أنبيائه، ما خلا سليمان، فإنه أعطاه منها ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾. ألا تراه يحكي عن بلقيس حين قالت: ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، ألا فمن قرأها معتقدا لموالاة محمد وآله، منقادا لأمرها، مؤمنا بظاهرها، وباطنها، أعطاه الله بكل حرف منها حسنة، كل واحدة منها أفضل له من الدنيا بما فيها من أصناف أموالها، وخيراتها؛ ومن استمع الى قارىء يقرؤها كان له قدر ثلث ما للقارىء، فليستكثر أحدكم من هذا الخير، المعرّض له، فإنه غنيمة لا يذهبنّ أوانه، فتبقى في قلوبكم حسرة»[1].

وعن الصادق عليه السلام: «**لو قرأت الحمد على ميّت سبعين مرة ثم ردّت فيه الروح ما كان عجيبا**»[2].

---

(١) الامالي: ٢٤١، من حد النقص الى حدّ الجمال اللائق له تحت تصرف الربوبي. ح٢٥٥

(٢) الكافي: ج٢/٦٢٣، باب: فضل القران، ح١٦

ب) في البيان الإجمالي لسورة الحمد المباركة

الاسم هو التجلي الفعلي الذي به تحققت دار التحقق، وإطلاق الاسم على الأمور العينية في لسان الله، ولسان رسوله، وأهل بيت العصمة عليهم السلام كثير، مثل ما ورد عنهم عليهم السلام: «**نحن الأسماء الحسنى**»[١]. وفي الأدعية الشريفة: «**وباسمك الذي تجليت به على فلان**»[٢] كثيرة.

ويحتمل أن يكون ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ في كل سورة متعلقا بتلك السورة، فمثلا ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ سورة الحمد المباركة متعلق بالحمد، وهذا مطابق للذوق العرفاني، ومسلك أهل المعرفة، لأنه إشارة الى أن حمد الحامدين، وثناء المثنين، بقيمومة اسم الله؛ فبناء على هذا، فالتسمية في مقدمة جميع الأقوال، والأفعال، التي هي من جملة المستحبات، للتذكر بأن كل قول، وفعل، لابد من أن يتحقق بقيمومة اسم الله، فبناء على هذا الاحتمال معنى ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في أوائل السور يختلف. وبالنظر الى اضمحلال الكثرات في حضرة اسم الله الأعظم، فلـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ في جميع السور معنى واحد، وهاتان النظرتان موجودتان في مراتب الوجود، ومنازل الغيب، والشهود. فبنظر: الكثرة، ورؤية التعينات،

---

(١) بحار الانوار: ج٢٥/٥، ح٧

(٢) اقبال الاعمال: ج٢/٣٠١

والموجودات، متكثرة؛ ومراتب الوجود، وتعينات عالم الأسماء، مختلفة؛ فرحمانية، ورحيمية، وقهرية، ولطفية؛ وفي نظر: اضمحلال الكثرات، وانمحاء أنوار الوجودية في النور الأزلي للفيض المقدس؛ فليس لمن سوى الفيض المقدس، والاسم الجامع الإلهي، خبر، ولا أثر.

فلابد للسالك الى الله في وقت التسمية من أن يفهم قلبه أن جميع الموجودات الظاهرة والباطنة، وجميع عوالم الغيب، والشهادة، تحت تربية أسماء الله؛ بل ظاهرة بظهور أسماء الله؛ وجميع حركاته، وسكناته، وجميع العالم، بقيمومية اسم الله الأعظم؛ فمحامده للحق، وعبادته، وإطاعته، وتوحيده، وإخلاصه، كل ذلك بقيمومة اسم الله؛ فإذا أحكم، واستقر هذا المقام، وهذه اللطيفة الإلهية في قلبه، بواسطة التذكر الشديد، الذي هو غاية العبادات، قال تعالى في خلوة الأنس، ومحفل القدس، لكليمه موسى بن عمران: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[1]. فجعل غاية إقامة الصلاة، ذكره؛ فبعد التذكر الشديد، يفتح لقلب العارف طريق آخر من المعارف؛ ويجذب الى عالم الوحدة، حتى يكون لسان حاله، وقلبه: بالله الحمد لله، وأنت كما أثنيت على نفسك، وأعوذ بك منك.

(١) طه: ١٤

هذا إجمال من سر تعلق باء بسم الله، ونبذة من المعارف التي تفاد منها.

أما أسرار الباء، والنقطة التي تحت الباء، التي باطنها مقام الولاية العلوية، ومقام جمع الجمع القرآني، فيستلزم مجالا أوسع.

وأما حقيقة الاسم، فإن لها مقاما غيبيا، وغيب الغيبي، وسريا، وسر السرّي، ومقام ظهور، وظهور الظهور، ولما كان الاسم علامة للحق، فان في الذات المقدسة، فكل اسم يكون أقرب الى أفق الوحدة، وأبعد من عالم الكثرة، فهو في الإسمية أكمل؛ وأتم الأسماء اسم يكون مبرأ عن الكثرات، حتى عن الكثرة العلمية، وهو التجلي الغيبي الأحدي الأحمدي في حضرة الذات بمقام الفيض الأقدس، ولعله اليه تشير الآية الكريمة ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾، وبعده التجلي بحضرة اسم الله الأعظم في الحضرة الواحدية، وبعده التجلي بالفيض المقدس، وبعده التجليات بنعت الكثرة في حضرات الأعيان الى أخيرة دار التحقق، وقد كتبت تفصيل هذا الاجمال في رسالتي: مصباح الهداية، وشرح دعاء السحر.

أما الذوق العرفاني، الذي نزل القرآن بأعلى مراتبه فيقتضي أن يكون ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مقدما على ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾؛ لأن القرآن الشريف، عند أصحاب القلوب، نازلة التجليات الإلهية، والصورة الكتبية للأسماء الحسنى الربوبية، ولما كان اسم الرحمن أكثر الأسماء الإلهية إحاطة بعد الاسم

الأعظم، وقد حُقق عند أصحاب المعرفة أن التجلي بالأسماء المحيطة مقدم على التجلي بالأسماء المحاطة، والاسم الأكثر إحاطة، التجلي به مقدم؛ لذا كان التجلي الأول في الحضرة الواحدية، التجلي باسم الله الأعظم، وبعده التجلي بمقام الرحمانية، وأن التجلي بالرحيمية بعد التجلي بالرحمانية، وهكذا في التجلي الظهوري الفعلي؛ التجلي بمقام المشيئة الذي هو الاسم الأعظم في هذا المشهد، وظهور الاسم الأعظم الذاتي، مقدم على جميع التجليات، والتجلي بمقام الرحمانية الذي له الإحاطة بجميع موجودات عالم الغيب والشهادة، وإلية الإشارة بـ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1]، وهو مقدم على سائر التجليات واليه يشير سبقت رحمته غضبه ببعض الوجوه.

قوله تعالى: الحمد لله: يعني جميع أنواع الحمد مختصة بذات الألوهية المقدسة؛ ولما كان الحمد في مقابل النعمة، والإنعام، والإحسان، وليس في دار التحقيق منعم سوى الحق، فجميع المحامد له خاصة، ولا جمال، سوى جماله؛ ولا جميل، سواه؛ فكل المدائح ترجع اليه.

أما بحسب عرفان أصحاب القلوب الفانية في بعض الحالات الخاصة، فجميع النعم، والكمال، والجمال، والجلال، صورة التجلي

(١) الأعراف: ١٥٦

الذاتي؛ وجميع المحامد، والمدائح، مرتبطة بذات الحق تعالى المقدسة، بل المدح، والحمد من نفسه، لنفسه، كما يشير الى هذا المعنى تعلق ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

إن دار الوجود أصل الحياة، وحقيقة العلم، والشعور؛ وتسبيح الموجودات تسبيح نطقي، شعوري، إرادي، لا التكويني الذاتي الذي يقوله المحجوبون؛ ولجميع الموجودات بحسب حظها من الوجود، معرفة بمقام الباري، جلت عظمته، ولما كان ليس لموجود الاشتغال بالطبيعة، والانغمار في الكثرة الى الحد الذي هو للإنسان، كانت محجوبية الإنسان أكثر من جميع الموجودات، إلا أن يخرج من جلباب البشرية، ويخرق حجب الكثرة، والغيرية؛ فيشاهد جمال الجميل بلا حجاب؛ فيكون حمده، ومدحه، أجمع المحامد، والمدائح؛ وهو إذًا يثني على الحق، ويعبده، بجميع الشؤون الإلهية، وكل الأسماء والصفات.

قوله تعالى: رب العالمين: الرب، إن كان بمعنى: المتعالي، والثابت، والسيد، فهو من الأسماء الذاتية، وإن كان بمعنى: المالك، والصاحب، والغالب، والقاهر، فهو من الأسماء الصفاتية، وإن كان بمعنى: المربّي، والمنعم، والمتمم، فهو من الأسماء الأفعالية.

والعالم، إن كان ما سوى الله الشامل لجميع مراتب الوجود، ومنازل الغيب، والشهود، فلا بد من أن يعد الرب من أسماء الصفات، وإن كان

المراد من العالم عالم الملك، الذي هو تدريجي الحصول، والكمال؛ فالمراد من الرب اسم الفعل؛ وعلى أي حال، ليس المراد منه هنا اسم الذات، ولعله بقرينة أن المراد من العالمين هذه العوالم الملكية التي تحت التربية الإلهية حتى تصل الى كمالها اللائق، فإن المراد من الربّ هو المربّي الذي هو من أسماء الأفعال؛ فإطلاقه على جميع الموجودات صحيح، كما أن إطلاقه على ذوي العقول وجيه أيضا، ولكن (العالم) يطلق على ما سوى الله؛ ويطلق على كل فرد، وصنف، فإن كان الذى يطلق اللفظ من أهل العرف، واللغة، فباعتبار أن كل فرد علامة لذات الباري، وفي كل شيء له آية، وإن كان عارفا إلهيا فباعتبار أن كل موجود ظهور بالاسم الجامع، ومشتمل على كل الحقائق بطريق ظهور أحدية الجمع، وسر الوجود.

و﴿رَبِّ﴾، إن كان من أسماء الصفات، بمعنى: المالك، والصاحب، وأشباههما، فيمكن أن يكون المراد من ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جميع ما سوى الله، سواء أكان من موجودات عالم الملك، أو من المجردة الغيبية، وأما إن كان من أسماء الأفعال، ولعل هذا هو الأظهر، فالمراد من ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: هو عالم الملك فقط، لأن الرب حينئذ بمعنى: المربّي، وهذا المعنى يستلزم التدريج؛ والعوالم المجردة منزّهة عن التدريج الزماني؛ وفي المسلك العرفاني، نقول: إن الحدوث الزماني ثابت لجميع العوالم، لكن لا على نحو يسعه فهم المتكلمين، وأصحاب الحديث.

مناسبة مقام ربوبية العالمين للتحميد

هذا التناسب من جهتين:

الأولى: أن الحامد يحمد الحق، لأنه ربّاه بيده التربوية في مقام الربوبية، فأخرجه من الضعف، والنقص، والوحشة، والظلمة، والعدم، والهيولاني، إلى القوة، والكمال، والطمأنينة، ونورانية العالم الإنساني؛ وأوصله عبر المنازل الجسمية، والعنصرية، والمعدنية، والنباتية، والحيوانية، تحت النظام المرتب بالحركات الذاتية، والجوهرية، وأنواع العشق الفطري، والجبلي، الى منزل الإنسانية، الذي هو أشرف منازل الموجودات، وبعد ذلك يربّيه إلى أن يصل الى حدّ لا يتّسع في الوهم.

الثانية: لما كانت تربية نظام عالم الملك، مقدمة وجود الإنسان الكامل، وعصارة عالم التحقق، والغاية القصوى للعالمين، ولما كان عالم الملك متحرك بالحركة الذاتية، الجوهرية؛ وهذه الحركة ذاتية استكماليا، فأينما انتهت فهو غاية الخلقة، ونهاية السير. إن الإنسان هو الوليدة الأخيرة التي وجدت بعد الحركات الذاتية الجوهرية للعالم، وانتهت الحركات اليه، فيد التربية للحق تعالى قد ربّت الإنسان في جميع دار التحقق، والإنسان هو الأول، والآخر.

إيقاظ ايماني

ربوبية الحق جلّ شأنه للعالمين على نحوين:

الأول: الربوبية العامة التي تشارك فيها جميع موجودات العالم وهي التربية التكوينية التي توصل كل موجود من حد النقص الى حدّ الجمال

والثاني: الربوبية التشريعية المختصة بالنوع الإنساني، وليس لسائر الموجودات فيها نصيب، وهذه التربية هي هداية طرق النجاة وإراءة سبل السعادة والإنسانية والتحذير من منافياتها قد أظهرها الله سبحانه بتوسط الأنبياء عليهم السلام، فإذا وقع إنسان بقدمه الاختيارية تحت تربية رب العالمين، وتصرفه وصار مربى بتلك التربية، حتى لم تكن تصرفات أعضائه وقواه الظاهرية والباطنية تصرفات نفسانية بل كانت تصرفات الهية وربوبية يصل الى مرتبة الكمال الإنساني المختص بالنوع الإنساني.

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

للرحمة الرحمانية والرحيمية مرتبتان وتجليان:

إحداهما: في مجلى الذات في حضرة الواحدية بتجلي الفيض الأقدس.

والأخرى: في مجلى الأعيان الكونية بتجلي الفيض المقدس، ففي السورة المباركة ان كان الرحمن الرحيم من صفات الذاتية كما هو ظاهر ففي الآية الشريفة ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يمكن ان تجعل هاتين الصفتين تابعتين للاسم، فتكونا من الصفات الفعلية، وبناء على هذا فليس في المقام تكرار أصلا حتى يقال إنه للتأكيد والمبالغة وعلى هذا الاحتمال فمعنى الآيات الشريفة والعلم عند الله يكون هكذا: بمشيئته

الرحمانية والرحيمية، الحمد لذاته الرحمانية والرحيمية، وكما أن مقام المشيئة هو تجلي الذات المقدسة فمقام الرحمانية والرحيمية الذي هو من تعينات مقام المشيئة تجلي الرحمانية والرحيمية الذاتيتين.

قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾

إن مالكية الحق تعالى ليست كمالكية العباد مملوكاتهم، ولا كمالكية السلاطين ممالكهم، لأنها إضافات اعتبارية وليست إضافة الحق الى الخلق من هذا القبيل؛ وليست من قبيل مالكية الإنسان أعضاءه وجوارحه وليست ايضا من قبيل مالكيته قواه الظاهرية والباطنية وان كانت هذه المالكية أقرب الى مالكيته تعالى من سائر انواع المالكية المذكورة سابقا. وليست من قبيل مالكية النفس لأفعالها الذاتية التي هي من شؤون النفس كإيجاد الصور الذهنية التي يكون قبضتها وبسطها الى حد تحت ارادة النفس ايضا وليست ايضا من قبيل مالكية العوالم العقلية ما دونها وان كانت تلك العوالم متصرفة في هذه العوالم بالإيجاد والاعدام لان جميع دار التحقق الامكانية الثابت في ناصيتها ذل الفقر محدودة بحدود ومقدرة بقدر ولو بالحد الماهوي وكل ما كان محدودا بحد يكون بينه وبين فعله بينونة عزليه على قدر محدوديته وليس له إحاطة قيومية حقانية، وأما مالكية الحق تعالى التي هي بالإضافة الاشراقية والاحاطة القيومية مالكية ذاتية حقيقية حقة بحيث ليست شائبة البينونة العزلية بوجه من الوجوه في ذاته

وصفاته لموجود من الموجودات، وان مالكية الذات المقدسة لجميع العوالم على السواء من دون أن يتفاوت بوجه لموجود من الموجودات أو أن تكون احاطته بعوالم الغيب والمجردات أكثر أو أقرب من العوالم الاخر لانه يستلزم المحدودية والبينونة العزلية ويلازم الافتقار والامكان تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا كما أنه يمكن أن تكون الاشارة الى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾[1]، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[2]. ومع أن مالكية الذات المقدسة لجميع الأشياء ولجميع العوالم على السواء، مع ذلك يقول في الآية الشريفة: مالك يوم الدين.. وهذا الاختصاص يمكن أن يكون امّا لأجل أن يوم الدين هو يوم الجمع، فلهذه الجهة مالك يوم الدين الذي هو يوم الجمع مالك سائر الأيام المتفرقات، والمتفرقات في النشأة الملكية هي مجتمعات في النشأة الملكوتية، وإما لان ظهور مالكية الحق وقاهريته تعالى مجده في يوم الجمع الذي هو يوم رجوع الممكنات الى باب الله وصعود الموجودات الى فناء الله.

إلهام عرشي

العرش في النظر العرفاني والطريق البرهاني يطلق على معان كثيرة،

(١) الواقعة: ٨٥

(٢) ق: ١٦

وأحد تلك المعاني ولم أره في لسان القوم هو الحضرة الواحدية التي هي مستوى الفيض الأقدس وحملته أربعة من أمهات الأسماء وهي: الأول والأخر والظاهر والباطن، والمعنى الأخر وما رأيته أيضا في لسان القوم الفيض المقدّس الذي هو مستوى الاسم الأعظم وحامله الرحمن الرحيم والرب والمالك، ومن اطلاقاته جميع ما سوى الله وحامله أربعة من الملائكة اسرافيل وجبرائيل وميكائيل وعزرائيل، والمعنى الاخر هو جسم الكل وحامله أربعة أملاك وهي صور أرباب الأنواع وقد أشير اليه في رواية الكافي. وربما أطلق على العلم ولعل المراد من العلم، العلم الفعلي للحق الذي هو عبارة عن مقام الولاية الكبرى وحملته أربعة من الأولياء الكمّل في الأمم السابقة وهم نوح وابراهيم وموسى وعيسى على نبينا وآله وعليهم السلام، وأربعة من الكمّل في هذه الأمه الرسول الخاتم وأمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام، فإذا علمت هذه المقدمه فاعلم:

أنه في السورة الشريفة الحمد بعد اسم الله الذي هو اشارة الى الذات اختصت بالذكر هذه الأسماء الشريفة الأربعة وهي الرب والرحمن والرحيم والمالك، ويمكن أن يكون هذا الاختصاص لأن هذه الاسماء الشريفة الأربعة حملة عرش الوحدانية بحسب الباطن ومظاهرها الملائكة الأربعة المقرّبون للحق تعالى حملة عرش التحقق، فالاسم المبارك

الرب باطن ميكائيل وهو بمظهريته للرب موكل بالأرزاق ومربي دار الوجود، والاسم الشريف الرحمن باطن اسرافيل منشأ الأرواح والنافخ في الصور وباسط الأرواح والصور كما أن بسط الوجود أيضا باسم الرحمن، والاسم الشريف الرحيم هو باطن جبرائيل الموكل على تعليم الموجودات وتكميلها. والاسم الشريف المالك هو باطن عزرائيل الموكل بقبض الأرواح والصور وارجاع الظاهر الى الباطن، فالسورة الشريفة الى مالك يوم الدين مشتملة على عرش الوحدانية وعرش التحقق ومشيرة الى حوامله، فجميع دائرة الوجود وتجليات الغيب والشهود التي ترجمانها القرآن مذكورة الى هذا الموضع من السورة، وهذا المعنى موجود جمعا في بسم الله الذي هو الاسم الأعظم وفي الباء التي هي مقام السببية وفي النقطة التي هي سر السببية وعليّ عليه السلام هو سر الولاية والله اعلم.

تنبيه عرفاني

لعل في تقديم الرب وذكر الرحمن والرحيم بعده وفي تأخير المالك، اشارة لطيفة الى كيفية سلوك الإنسان من النشأة الملكية الدنيوية حتى الفناء الكلي أو حتى مقام الحضور عند مالك الملوك. فالسالك مادام في مبادىء السير فهو تحت تربية رب العالمين التدريجية لأنه أيضا من العالمين وسلوكه تحت تصرف الزمان والتدرج فإذا انسلخ عن عالم الطبيعة المتصرمة بقدم السلوك تتجلى لقلبه مرتبة الاسماء المحيطة التي لا تتعلق

بالعالم فقط الذي يغلب عليه جانب السوائية، وحيث أن للاسم الرحمن الشريف مزيد اختصاص بين الاسماء المحيطة فلهذه الجهة قد ذكر، وحيث أن الرحمن ظهور الرحمة ومرتبة البسط المطلق فقد قدم على الرحيم الأقرب الى أفق البطون.

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

إذا علم السالك في طريق المعرفة ان المحامد والمدائح بتمامها مختصة بذات الحق وعلم أن قبض الوجود وبسطه منه وعلم أن أزمّة الأمور في الأول والآخر والمبدأ والمنتهى بيد مالكيته وتجلى لقلبه توحيد الذات والصفات والافعال فانه يحصر العبادة والاستعانة بالحق، ويرى جميع دار التحقق خاضعة لذاته المقدسة طوعا أو كرها ولا يرى قادرا في دار التحقق حتى ينسب الاعانة اليه.

وبالجملة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ من متفرعات الحمد لله الذي هو اشارة الى التوحيد الحقيقي، ومن لم تتجلّ حقيقة التوحيد في قلبه ولم يطهر قلبه من مطلق الشرك فقوله اياك نعبد عار عن الحقيقة ولا يتمكن من حصر العبادة والاستعانة بالحق ولا يكون شاهدا لله وطالبا لله، وإذا تجلى التوحيد في القلب فانه ينصرف عن الموجودات ويتعلق بعزّ قدس الحق بمقدار تجلّيه الى أن يشاهد انه باسم الله يقع اياك نعبد واياك

نستعين وتتجلى لقلبه بعض حقائق «انت كما أثنيت على نفسك»[١].

تنبيه إشراقي

هذه السورة الشريفة تعطي تقريرا للترقي الروحاني والسفر العرفاني، وحيث أن العبد في بدء السلوك الى الله محجوب في الحجب الظلمانية لعالم الطبع والحجب النورانية لعالم الغيب ومحبوس فيها، والسفر الى الله هو الخروج من هذه الحجب بقدم السلوك المعنوي، وفي الحقيقة المهاجرة الى الله هي الرجوع من بيت النفس وبيت الخلق الى الله وترك الكثرات ورفض غبار الغيرية وحصول التوحيدات والغيبة عن الخلق والحضور لدى الرب، فإذا رأى في الآية الشريفة مالك يوم الدين الكثرات منطوية تحت سطوع نور المالكية والقاهرية فتحصل له حالة المحو عن الكثرة ويحصل له الحضور في الحضرة ويقدّم العبودية بالمخاطبة الحضورية ومشاهدة الجمال والجلال ويعرض مشاهداته لله وطلبه على محضر القدس، ومحفل الانس.

تحقيق عرفاني

ذكرنا نكتة في السرّ الجملي للأذان، والإقامة، هي أن الأذان إعلان لقوى السالك الملكية، والملكوتية، بالحضور في المحضر؛ وإن الإقامة هي

(١) اقبال الاعمال: ج١/١٢١

إقامتها في الحضور، فإذا أحضر السالك قواه الملكية، والملكوتية، في المحضر؛ وقام القلب الذي هو إمامها بسمة الإمامة، فقد قامت الصلاة؛ وإن المؤمن وحده جماعة؛ فقول: ﴿نَعْبُدُ﴾، و﴿نَسْتَعِينُ﴾، و﴿اهْدِنَا﴾، كلها من أجل هذا الجمع الحاضر في محضر القدس، وقد أشير الى هذا المعنى في الروايات، والأدعية، الصادرة عن أهل بيت العصمة، والطهارة، منابع العرفان والشهود.

والوجه الآخر الذي يتراءى في نظر الكاتب، هو أن السالك في ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إذا جعل المحامد من كل حامد في الملك، والملكوت، مقصورة، ومخصوصة بالذات المقدسة للحق؛ وقد ظهر أيضا في مدارك برهان أئمة البرهان، وقلوب أصحاب العرفان، أن لجميع دائرة الوجود، بملكها، وملكوتها، وقضها، وقضيضها، حياة شعورية، إدراكية، حيوانية، بل إنسانية، وهي حامدة مسبحة للحق تعالى عن استشعار وإدراك؛ وإن الخضوع لدى حضرة الكامل المقدسة، والجميل على الإطلاق، ثابت في فطرة جميع الموجودات، ولا سيما النوع الإنساني، وناصية الجميع في جناب قدسه على التراب، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1]. فإذا وجد السالك الى الله هذه الحقيقة، بقدم الاستدلال البرهاني، أو الذوق الإيماني، أو المشاهدة

(١) الإسراء: ٤٤

العرفانية، فهو يدرك في أي مقام هو فيه، أن جميع ذرات الوجود، وسكنة الغيب، والشهود، عابدة للمعبود على الإطلاق، وتطلب موجدها، فيظهر بصيغة الجمع أن جميع الموجودات في جميع حركاتها، وسكناتها، تعبد الذات المقدسة للحق تعالى، وتستعين به.

تنبيه ونكتة

تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، لعل النكتة فيه أن حصر الاستعانة بالحق تعالى متأخر عن حصر العبادة، بحسب السلوك الى الله، وهو واضح، فإن كثيرا من الموحدين في العبادة، والحاصرين العبادة في الحق، مشركون في الاستعانة، فلا يحصرون الاستعانة بالحق، فالحصر في العبادة بمعناه المتعارف من أوائل مقامات الموحدين، أما حصر الاستعانة، فهو ترك غير الحق مطلقا، ولا يخفى أن المقصود من الاستعانة، ليس الاستعانة في العبادة فقط، بل الاستعانة في مطلق الأمور، وهذا إنما يكون بعد رفض الأسباب، وترك الكثرات، والإقبال التام على الله.

وبعبارة أخرى: حصر العبادة هو حب الحق، وطلب الحق، وترك طلب غيره، أما حصر الاستعانة، فهو رؤية الحق، وترك رؤية غيره؛ وفي مقامات العارفين، ومنازل السالكين، ترك رؤية غيره متأخّر عن ترك طلب غيره.

إيقاظ إيماني

أيها العزيز، إننا ما دمنا في هذه الحجب الغليظة لعالم الطبيعة، ونصرف الوقت في تعمير الدنيا، ولذائذها، غافلين عن الحق تعالى، وذكره؛ والتفكر فيه، فجميع عباداتنا، وأذكارنا، وقراءاتنا، عارية عن الحقيقة؛ فلا في ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، نتمكن من حصر المحامد للحق، ولا في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ نسلك طريقا من الحقيقة، بل نحن مع هذه الدعاوى الفارغة مخزيون، وناكسو الرؤوس، في محضر الحق تعالى، والملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، والأولياء المعصومين؛ فإن من كان لسان حاله، ومقاله، مشحونا بمدح أهل الدنيا، كيف يقول: الحمد لله. وإن من كانت وجهة قلبه الى الطبيعة، ولم يشمّ رائحة الألوهية، وكان اعتماده، واتكاله على الخلق، فبأي لسان يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ فإذا كنت من رجال هذا الميدان، فشمّر ذيل الهمة، وأوصل الى قلبك هذه الحقائق، واللطائف، التي ذكرت في هذه الرسالة؛ في أوائل الأمر بشدّة التذكر، والتفكر، في عظمة الحق، وفي ذلة المخلوق، وعجزه، وفقره؛ أحيِ قلبك بذكر الحق تعالى، كي تصل رائحة من التوحيد الى شامة قلبك، وتجد طريقا الى صلاة أهل المعرفة، بالإمداد الغيبي؛ وان لم تكن من رجال هذا الميدان، فلا أقل من أن تجعل نقصك نصب عينيك؛ وتوجّه الى ذلتك، وعجزك، وقم بالأمر بالخجلة،

والاستحياء؛ واحذر من دعوى العبودية، واقرأ هذه الآيات الشريفة التي لست متحققا بلطائفها، إما بلسان الكمّل، وإما أن يكون في نيّتك قراءة صورة القرآن صرفا، حتى لا تدّعي باطلا، ولا يكون ادّعاؤك كاذبا على الأقل.

قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ الى آخر السورة

كمّل أهل المعرفة، الذين مقام كمالهم هو حالة البرزخية الكبرى، التي ليس الخلق فيها حجابا من الحق، إذا تمّ سيرهم الى الله، بغروب أفق العبودية، وطلوع سلطنة المالكية، في ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾، ففي منتهى هذا السلوك، تصيبه حالة التمكن، والاستقرار؛ ويصحو السالك، وتحصل له حالة الصحو؛ ويتوجّه الى مقامه؛ ولكن اتباع التوجّه الى الحق بعكس حال الرجوع الى الله، الذي كان التوجه الى الحق فيه يتبع التوجه الى الخلق. وبعبارة أخرى، في حال السلوك إلى الله، كان يرى الحق في الحجاب الخلقي؛ وبعد الرجوع من مرتبة الفناء الكلي التي حصلت في ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ يرى الخلق في حجاب الحق، ومن هذه الجهة يقول ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ بتقديم ضمير ﴿إِيَّاكَ﴾ على ذاته، وعبادته؛ ولتحقيق الثبات، وعدم الزلّة، يطلب من الحق تعالى ثباته ولزومه، بقوله: ﴿ ٱهۡدِنَا﴾، أي: ألزمنا، وقد فُسر بهذا؛ و﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ لهم هو صراط الحق، و﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، هم الذين قدر الحق تعالى

في الحضرة العلمية بالتجلي بالفيض الأقدس استعدادهم، وبعد الفناء الكلي أرجعهم الى مملكتهم؛ و﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ هم المحجوبون قبل الوصول، و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ هم الفانون في الحضرة.

وأما غير الكمّل فصراطهم صراط ظاهر الشريعة، ولهذا فسّر ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ بالدين، والإسلام، وأمثالها؛ وإن كانوا من أهل السلوك؛ فالمقصود من الهداية، ومن الصراط المستقيم، أقرب طرق الوصول الى الله، وهو طريق رسول الله وأهل بيته، كما فسّر برسول الله، وأئمة الهدى، وأمير المؤمنين عليهم السلام، وكما في الحديث: أنّ رسول الله رسم خطا مستقيما، ورسم في أطرافه خطوطا، قال رسول الله صلى الله عليه وآله هذا الخط الوسط المستقيم.

تنبيه إشراقي وإشراق عرفاني

إنّ لكل من الموجودات صراطا خاصّا به، ونورا، وهداية، مخصوصا به؛ والطرق الى الله بعدد أنفاس الخلائق؛ ولما كان في كل تعيّن حجاب ظلماني، وفي كل وجود وإنيّة حجاب نوراني، والإنسان مجمع التعيّنات، وجامع الموجودات، فهو أحجب الموجودات عن الحق تعالى، ولعله الى هذا المعنى تشير الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾[1]؛ ومن هذه

(١) التين: ٥

الجهة، فصراط الإنسان أطول الصرط وأظلمها، ولما كان رب الإنسان حضرة اسم الله الاعظم، ونسبة الظاهر، والباطن، والأول، والآخر، والرحمة، والقهر. وبكلمة أخيرة: نسبة جميع الأسماء المتقابلة له على السواء، فلا بد من أن يحصل لنفس الإنسان في منتهى سيره، مقام البرزخية الكبرى، ولهذه الجهة يكون صراطه أدق من صراط سواه.

تنبيه إيماني

إن للهداية بحسب أنواع سير السائرين، ومراتب سلوك السالكين إلى الله، مقامات ومراتب، منها:

الأولى: الهداية الفطرية، وهي السلوك الى الله بلا احتجاب بالحجب الملكية، أو الملكوتية؛ أو بلا احتجاب بحجب المعاصي القالبية، أو القلبية؛ أو بلا احتجاب بالحجب النورانية، أو الظلمانية، أو بلا احتجاب بحجب الوحدة، أو الكثرة.

الثانية: الهداية بنور القرآن، وفي مقابلها الغلوّ، والتقصير عن معرفته، أو الوقوف على الظاهر، والوقوف على الباطن. إن بعض أهل الظاهر يرون أن علوم القرآن هي المعاني العرفية العامية، والمفاهيم السوقية، والوضعية؛ ولهذا لا يتفكرون في القرآن، ولا يتدبرونه، واستفادتهم من هذه الصحيفة النورانية منحصرة بالمقررات الصورية الظاهرية، والآيات الكثيرة الدالة على أن التدبّر، والتذكّر، لازم، أو راجح، ويفتح أبوابا من

المعرفة بالاستنارة بنور القرآن، يجعلونها وراء ظهورهم، فكأن القرآن نزل للدعوة الى الدنيا، ومستلذاتها الحيوانية، وتأكيد المقام الحيواني، والشهوات البهيمية.

وبعض أهل الباطن، اتّباعا لظنونهم، ينصرفون عن ظاهر القرآن، ودعواته الصورية، التي هي برنامج التأدّب بآداب المحضر الالهي، وكيفية السلوك الى الله، وهم عنها غافلون، وينحرفون عن ظاهر القرآن بتلبيسات إبليس اللعين، والنفس الأمارة بالسوء، ويتشبّثون بزعمهم بالعلوم الباطنية، مع أن طريق الوصول الى الباطن بالتأدب بالظاهر.

هاتان الطائفتان خارجتان عن جادة الاعتدال، ومحرومتان من نور الهداية إلى الصراط المستقيم القرآني، ومنسوبتان الى الإفراط، والتفريط؛ ولكن العالم المحقق، والعارف المدقق، يقوم بالظاهر، والباطن، ويتأدب بالآداب الصورية، والمعنوية، فكما أنه ينوّر الظاهر بنور القرآن، ينوّر الباطن بأنوار معارفه، وتوحيده، وتجريده.

الثالثة: الهداية بنور الشريعة.

الرابعة: الهداية بنور الاسلام.

الخامسة: الهداية بنور الايمان.

السادسة: الهداية بنور اليقين.

السابعة: الهداية بنور العرفان.

الثامنة: الهداية بنور المحبة.

التاسعة: الهداية بنور الولاية.

العاشرة: الهداية بنور التجريد، والتوحيد.

ولكل منها طرفان: إفراط، وتفريط؛ وغلوّ، وتقصير؛ ولعله الى بعضها، أو جميعها، يشير الحديث الشريف للكافي: «نحن آل محمد النمط الأوسط، الذي لا يدركنا الغالي، ولا يسبقنا التالي»[1].

كلام للشيخ البهائي

قسّم الشيخ الجليل البهائي قدس سره في رسالة العروة الوثقى نعم الله سبحانه على ثمانية أقسام:

الأول: الدنيوي، الوهبي، الروحاني، كنفخ الروح، وإفاضة العقل، والفهم.

الثاني: الدنيوي، الوهبي، الجسماني، مثل: خلق الأعضاء، وقواها.

الثالث: الدنيوي، الكسبي، الروحاني، كتخلية النفس من الأمور الدنية، وتحليتها بالملكات العالية.

الرابع: الدنيوي، الكسبي، الجسماني، كالتزيّن بالهيئة الحميدة، والحليّ الحسنة.

---

(١) الكافي: ١/١٠١، كتاب: التوحيد، باب: النهي عن الصفة، ح: ٣

الخامس: الأخروي، الوهبي، الروحاني؛ كأن يغفر الله ذنوبنا، ويرضى عمن تاب سابقا.

السادس: الأخروي، الوهبي، الجسماني، كأنهار من لبن، وعسل.

السابع: الأخروي، الكسبي، الروحاني، كالمغفرة، والرضوان، مع سبق التوبة، وكاللذات الروحانية التي استجلبت بفعل الطاعات.

الثامن: الأخروي، الكسبي، الجسماني، كاللذات الجسمانية التي استجلبت لفعل الطاعات، والمراد من النعمة هنا، الأقسام الأربعة الأخيرة، وما يكون وسيلة للبلوغ الى هذه الأقسام الأربعة من الأقسام الأربعة، الأول.

وغير ما ذكره الشيخ الجليل الراجع الى اللذات الحيوانية، والحظوظ النفسانية، نِعَم أخرى، وعمدتها ثلاث:

الأولى: نعمة معرفة الذات، والتوحيد الذاتي، التي أصلها السلوك الى الله، ونتيجتها جنة اللقاء؛ وإذا كان السالك نظر الى النتيجة، ففي السلوك نقصان؛ لأن هذا المقام ترك النفس ولذاتها، والتوجه الى حصول النتيجة، توجه الى النفس؛ وهذا هو عبادة للنفس لا لله، وتكثير لا توحيد، وتلبيس لا تجريد.

الثانية: نعمة معرفة الأسماء، وهذه النعمة تتشعب بحسب الكثرة الأسمائية، فإن حسبت مفرداتها فألف، وإن حسبت بالتركيب من

الاسمين، أو الأسماء، فخارجة عن حد الإحصاء ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[١]؛ والتوحيد الأسمائي في هذا المقام، نعمة معرفة الاسم الأعظم، الذي هو مقام أحدية جمع الأسماء، ونتيجة معرفة الأسماء جنة الأسماء، لكل على مقدار معرفة اسم، أو أسماء، فردا، أو جمعا.

الثالثة: نعمة معرفة الأفعال، ولها شعب كثيرة غير متناهية؛ ومقام التوحيد في هذه المرتبة، هو أحدية جمع التجليات الفعلية، التي هي مقام الفيض الأقدس، ومقام الولاية المطلقة، ونتيجتها جنة الأفعال، التي هي تجليات أفعالية للحق تعالى لقلب السالك، ولعل التجلي لموسى بن عمران في بدء الأمر إذ قال: ﴿ءَانَسْتُ نَارًا﴾[٢]، كان بالتجلي الأفعالي، والتجلي الذي إليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[٣]، كان تجليا أسمائيا، أو ذاتيا؛ فصراط المنعم عليهم في المقام الأول، صراط السلوك الى ذات الله، والنعمة في ذلك المقام، التجلي الذاتي. وفي المقام الثاني صراط السلوك إلى أسماء الله، والنعمة في ذلك المقام التجليات الأسمائية، وفي المقام الثالث السلوك إلى فعل الله، ونعمته التجلي الأفعالي، سواء أكانت روحانية، أو جسمانية، كما

(١) إبراهيم: ٣٤

(٢) طه: ١٠

(٣) الأعراف: ١٤٣

أثبت هذا المقام في الروايات لبعض المؤمنين أيضا.

خاتمة

هذه السورة المباركة مشتملة على جميع مراتب الوجود، إذ:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: إشارة الى دائرة الوجود بتمامها، وقوس النزول، والصعود؛ فاسم ﴿ٱللَّهِ﴾ مقام أحدية القبض، والبسط؛ و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مقام البسط والظهور، وهو قوس النزول؛ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: مقام القبض، والبطون، وهو قوس الصعود.

و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: إشارة الى عالم الجبروت، والملكوت الأعلى، التي حقائقها المحامد المطلقة.

و﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: إشارة الى أن عوالم الطبيعة بجوهر ذاتها متحركة، ومتصرمة، وتحت التربية.

و﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: إشارة الى مقام الوحدة، والقهارية، ورجوع دائرة الوجود.

والى هنا يختتم دائرة الوجود بتمامها نزولا وصعودا.

وهذه السورة المباركة، مشتملة على جميع مراتب السلوك؛ لأن الاستعاذة، وهي مستحبة، لعلها إشارة الى ترك غير الحق، والفرار من السلطنة الشيطانية. ولما كانت هذه مقدمة المقامات، لا جزءها؛ لأن التخلية مقدمه للتحلية، وليست بالذات من المقامات الكمالية، ولهذا

ليست الاستعاذة جزءا للسورة بل مقدمه للدخول فيها.

والتسمية لعلها إشارة الى مقام التوحيد الفعلي، والذاتي، والجمع بينهما.

و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لعلّها إشارة إلى التوحيد الفعلى.

و﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ إشارة إلى الفناء التام، والتوحيد الذاتي، ومن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تشرع حالة الصحو، والرجوع.

وبعبارة أخرى: الاستعاذة هي السفر من الخلق إلى الحق، والخروج من بيت النفس، والتسمية إشارة إلى التحقق بالحقانية بعد الخلع عن الخلقية، وعالم الكثرة.

و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: إشارة الى السفر من الحق الى الحق في الحق.

وفي ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يتم هذا السفر.

هذه السورة الشريفة مشتملة على عمدة المقاصد الإلهية في القرآن الشريف، لأن أصل مقاصد القرآن هو تكميل معرفة الله، وتحصيل التوحيدات الثلاثة؛ والرابطة فيما بين الحق والخلق، وكيفية السلوك الى الله، وكيفية رجوع الرقائق الى حقيقية الحقائق، وتعريف التجليات الإلهية: جمعا، وتفصيلا، وفردا، وتركيبا، وإرشاد الخلق سلوكا وتحققا،

وتعليم العباد: علما، وعملا، وعرفانا، وشهودا. وجميع هذه الحقائق موجودة في هذه السورة الشريفة: فاتحة الكتاب، وأم الكتاب، وصورة إجمالية عن مقاصد القرآن الكريم، ولما كانت جميع مقاصد الكتاب الإلهي، ترجع الى مقصد واحد، وهو حقيقة التوحيد، التي هي غاية النبوات، ونهاية مقاصد الأنبياء العظام عليهم السلام؛ فحقائق التوحيد، وسرائره، منطوية في الآية المباركة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فهذه الآية الشريفة أعظم الآيات الإلهية، ومشتملة على جميع مقاصد الكتاب الإلهي، كما ورد فى الحديث الشريف، ولما كانت الباء ظهور التوحيد، ونقطة تحت الباء سرّه، فجميع الكتاب: ظهورا، وسرا، موجودة فيها؛ والإنسان الكامل يعني الوجود العلوي المبارك (عليه الصلاة والسلام) هو نقطة سر التوحيد، وليس في العالم آية أكبر من ذلك الوجود المبارك بعد الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله كما ورد في الحديث الشريف.

الفصل الرابع

في تفسير سورة التوحيد والقدر المباركتين

فضل سورة التوحيد المباركة

عن باقر العلوم عليه السلام: «**من قرأ قل هو الله أحد مرّة، بورك عليه؛ ومن قرأها مرّتين، بورك عليه، وعلى أهله؛ ومن قرأها ثلاث مرات، بورك عليه، وعلى أهله، وعلى جيرانه، ومن قرأها اثنتي عشرة مرة، بنى الله له اثني عشر قصرا في الجنة؛ فيقول الحفظة: اذهبوا بنا إلى قصور أخينا فلان، فننظر إليها، ومن قرأها مائة مرة، غفرت له ذنوب خمس وعشرين سنة، ما خلا الدماء، والأموال؛ ومن قرأها أربعمائة مرة، كان له أجر أربعمائة شهيد، كلهم قد عقر جواده، وأريق دمه؛ ومن قرأها ألف مرة في يوم وليلة، لم يمت حتى يرى مقعده في الجنة، أو يُرى له**»[1].

وعنه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**من قرأ قل هو الله أحد مائة مرة حين يأخذ مضجعه، غفر الله له ذنوبه خمسين سنة**»[2].

وعن أبي عبد الله عليه السلام: أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله، فقالوا: «**انسب**

---

(١) الكافي: ج٢/٣٦٠، باب: فضل القران، ح١

(٢) الكافي ج٢/٣٦٠، باب: فضل القران، ح٤

لنا ربّك؛ فلبث ثلاثا لا يجيبهم، ثم نزلت: قل هو الله أحد إلى آخرها»[١]؛ فلهذا تعجز عقول البشر عن فهم حقائقها، ودقائقها، وأسرارها؛ ولكن مع هذا الوصف، فما نصيب أهل المعرفة منها؟، وما حظ قلوب أهل الله منها؟؛ لا يسعه ميزان العقل المجرّد،؛ ولعمر الحبيب إن هذه السورة الشريفة من الأمانات التي عجزت عن حملها سماوات الأرواح، وأراضي الأشباح، وجبال الإنّـيّات، وأشفقن منها؛ ولا يليق بحملها إلا الإنسان الكامل؛ ولكن مع ذلك هنا بشارة تقرّ بها عيون أهل آخر الزمان؛ وتعطي الاطمئنان لقلوب أهل المعرفة؛ وهي الحديث: «سُئل علي بن الحسين عليه السلام عن التوحيد، فقال: إن الله (عزّ وجلّ) علم أنه يكون في آخر الزمان أقوام متعمّقون؛ فأنزل الله تعالى: قل هو الله أحد، والآيات من سورة الحديد إلى قوله: وهو عليم بذات الصدور، فمن رام وراء ذلك فقد هلك»[٢].

ويعلم من هذا الحديث الشريف أن فهم هذه الآيات، وهذه السورة المباركة، يحق للمتعمقين، وأصحاب الأنظار الدقيقة؛ ودقائق التوحيد والمعرفة وسرائرها منطوية فيها.

---

(١) الكافي: ج١/٩١، باب: النسبة، ح١

(٢) الكافي: ج١/٩١، باب: النسبة، ح٣

إن أعظم شاهد على أن هذه المعارف خارجة عن تحمل البشر، وفوق أن يحيط بها الفكر الإنساني، أنه من قبل أن تنزل هذه الآيات الشريفة، وأمثالها من المعارف، لم يكن عند البشر هذا القسم من المعارف، ولم يكن لهم طريق إلى هذه السرائر.

في تفسير سورة التوحيد المباركة

إن ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ هذه السورة، إنْ كانت متعلقة بهذه السورة نفسها، كما احتملنا ذلك في سورة الحمد، فلعلّها إشارة إلى أن شرح نسب الحق تعالى، وبيان أسرار التوحيد، لا يمكن بأنانية النفس، واللسان المنسوب إلى النفس، بل السالك ما لم يخرج من حجاب النفس، ولم يتحقق بمقام المشيئة المطلقة، وحضرة الفيض المقدّس، وفانيًا في الهوية المطلقة، لم يدرك سرائر التوحيد.

و﴿قُلْ﴾: أمر من الحضرة الأحدية الجمعية، بمقام البرزخية الكبرى، ومرآة الجمع والتفصيل؛ يعني: قل يا محمد، يا مرآة ظهور أحدية الجمع، في مقام التدلي الذاتي، أو المقام المقدس، أو أدنى، الذي يمكن أن يكون إشارة إلى مقام الفيض الأقدس (باللسان الفاني من نفسك الباقي ببقاء الله) هو الله أحد.

اعلم أيها السالك سبيل المعرفة، والتوحيد، والعارج معارج التنزيه، والتجريد، أن الذات المقدسة للحق تعالى، من حيث هي منزّهة عن

التجليات الظاهرة، والباطنة، ومبرّأة عن الإشارة، والاسم، والصفة، والرسم، فأيدي آمال أهل المعرفة قاصرة عن ذيل كبريائه؛ وأرجل أصحاب القلوب في السلوك راجلة عن الوصول إلى بلاط قدسه. إن غاية معرفة الأولياء الكمل: «ما عرفناك»؛ ونهاية سير أصحاب الأسرار: «ما عبدناك»؛ ورئيس سلسلة أهل المعرفة، وأمير أصحاب التوحيد، يقول في هذا المقام الرفيع: «**كمال الإخلاص له نفي الصفات عنه**»[1].

إن الذات بلا حجاب الأسماء، والصفات، لن تتجلى في مرآة في المرائي؛ ولن تظهر في نشأة من نشآت الوجود، وفي عالم من عوالم الغيب، والشهود؛ ولكن بحسب كل يوم هو في شأن.. أن للذات المقدسة أسماء، وصفات، وشؤونها جمالية، وجلالية، ولها أسماء ذاتية في مقام الأحدية، الذي هو مقام الغيب، ولابدّ من أن يقال لتلك الأسماء: الأسماء الذاتية، وبتعيّن الأسماء الذاتية يتجلى بالفيض الأقدس، وبهذا التجلي في كسوة الأسماء الذاتية، يتعيّن، ويظهر، مقام الواحدية، وحضرة الأسماء، والصفات، ومقام الألوهية، فعلم أنه بعد الذات المقدسة من حيث هي، ثلاث مقامات، ومشاهد، أخر: مقام الغيب الأحدي، ومقام التجلي بالفيض الأقدس، ولعل العماء الواردة في الحديث النبوي إشارة إليه، ومقام الواحدية، الذي هو الاسم الأعظم بأحدية الجمع، ومقام

(١) نهج البلاغة: ٣٨، الخطبة: ١

الأسماء، والصفات، بالكثرة التفصيلية، وتفصيل هذه المقامات يحتاج إلى بسط خارج عن مجال هذه الأوراق.

فبعدما علمت هذه المقدمة نقول:

يمكن أن يكون ﴿هُوَ﴾ إشارة إلى مقام الفيض الأقدس، وهو تجلي الذات بتعيّن الأسماء الذاتية.

﴿ٱللَّهُ﴾: إشارة إلى مقام أحدية الجمع الأسمائية، وهو حضرة الاسم الأعظم.

و﴿أَحَدٌ﴾: إشارة إلى مقام الأحدية، وبناء على هذا فالآية الشريفة في صدد إثبات أن هذه المقامات الثلاثة، على الرغم من أنها في مقام التكثير الأسمائي، متكثرة، لكنها في غاية الوحدة بحسب الحقيقة؛ وأن التجلي بالفيض الأقدس، بحسب مقام الظهور؛ فهو الله، وبحسب مقام البطون أحد.

ولعل ﴿هُوَ﴾: إشارة إلى مقام الذات، ولما كان ﴿هُوَ﴾ إشارة غيبية، فهو في الحقيقة إشارة إلى المجهول؛ و﴿ٱللَّهُ﴾ و﴿أحد﴾: إشارة إلى مقام الواحدية، والأحدية؛ فيعرف الذات التي هي المجهول المطلق بالأسماء الذاتية، والأسماء الواحدية، والصفاتية؛ فهو في الحقيقة إشارة إلى أن الذات هي الغيب، وأيدي الآمال عنها قاصرة، وصرف العمر في التفكر في الذات، موجب للضلالة؛ وما هو مورد لمعرفة أهل الله، وعلم العالمين

بالله، هو مقام الواحدية، والأحدية؛ فالواحدية لعامة أهل الله، والأحدية للخلّص من أهل الله.

تنبيه حكمي

إن صفات الجمال لله تعالى، عند أهل المعرفة، صفات يحصل منها الأنس، والعلاقة؛ وصفات الجلال، صفات يحصل منها الوحشة، والحيرة، والهيمان؛ فما كان متعلقا باللطف، والرحمة، فهو من صفات الجمال، كالرحمن، والرحيم، واللطيف، والعطوف، والرب، وأمثالها؛ وما كان متعلقا بالقهر، والكبرياء، فهو من صفات الجلال، كالمالك، والملك، والقهّار، والمنتقم، وأمثالها؛ وإن كان في سر كل جمال جلال؛ لأن كل جمال يبطن حيرة، وهيمانا؛ ويظهر للقلب بسّر العظمة، والقدرة؛ وكل جلال في باطنه الرحمة؛ والقلب يأنس به باطنا؛ ولهذا كما أن القلب بفطرته مجذوب للجمال، والجميل، فهو كذلك مجذوب للقدرة، والعظمة، والقادر، والعظيم؛ فهذان النوعان من الصفات صفة ثبوتية لا سلبية، فإذا علم هذا المطلب فاعلم أن ﴿الله﴾ وإن كان هو الاسم الأعظم، وأن صفات الجمال، والجلال، تحت حيطته؛ لكن ربما يطلق على صفات الجمال، كالإلهية، والألوهية، مقابلًا صفات الجلال، فإن الإلهية والألوهية، راجعتان إلى صفات الجمال نوعا، ولاسيما إذا وقعت في مقابل صفة الجلال.

وفي الآية الشريفة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ يمكن أن يكون

﴿أَحَدٌ﴾ إشارة لإحدى أمّهات صفات الجلال، وهي مقام كمال بساطة الذات المقدسة؛ و﴿ٱللَّهُ﴾: إشارة إلى اسم الجمال، ففي الآية قد عرّفت نسبة الحق تعالى بحسب مقام الأحدية، والواحدية، والتجلي، بالفيض الأقدس، وهذه الثلاثة جميع الشؤون الإلهية.

تنبيه عرفاني

إن القرآن نزل لجميع طبقات الإنسان، في جميع أدوار العمر البشري، وهو رافع لجميع حوائج النوع الإنساني؛ ولما كانت حقيقة هذا النوع حقيقة جامعة، وواجدة لتمام المنازل من المنزل الأسفل الملكي إلى أعلى مراتب الروحانية، والملكوت، والجبروت؛ تختلف أفراد هذا النوع في هذا العالم من أسفل الملكي اختلافا تاما، ففي هذا النوع، الشقّي في كمال الشقاوة موجود، والسعيد في كمال السعادة، فبعض أفراده أسفل من جميع الحيوانات، وبعض أفراده أشرف من جميع الملائكة المقربين.

وبالجملة، لما كان أفراد هذا النوع مختلفة، ومتفاوتة، في المدارك والمعارف، فالقرآن نزل على نحو يستفيد كل منه، بحسب كمال إدراكه، ومعارفه، وضعفها، بحسب ما له من الدرجة العلمية.

الآية الشريفة: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1]؛ أهل العرف

(١) الأنبياء: ٢٢

يفهمون منها بيانا خطابيا بحسب ذوقهم؛ فيقولون مثلا: مملكة واحدة لا تسع لسلطانين، وهكذا إذا كان في العالم إلهان، كان فيه الفساد، والتنازع، والاختلاف، والتشاجر؛ ولما كان هذا الاختلاف غير موجود، ونظام السموات، والأرض، محفوظ؛ فهذا دليل على أن مدير العالم واحد.

والمتكلمون يستفيدون منها برهان التمانع.

والفلاسفة، والحكماء، يقيمون منها البرهان المتين الحكمي من طريق (الواحد لا يصدر إلا من الواحد).

وأهل المعرفة أيضا من طريق: أن العالم مرآة الظهور، ومجلي للتجليات الحق، يستفيدون الوحدانية منها بطور آخر.

فإذا علمت هذه المقدمة، فاعلم أن هذه السورة الشريفة من جوامع الكلم، كسائر القرآن، يستفيد كل منه على طور، كما أن علماء الأدب والظاهر يرون أنّ ﴿هُوَ﴾ ضمير الشأن، و﴿ٱللَّهُ﴾ علم الذات، و﴿أَحَدٌ﴾ بمعنى: الواحد، أو مبالغة في الوحدة، يعني: أن الله واحد، أو أنه لا شريك له في الإلهية، أو ليس كمثله شيء، أو أنه لا شريك له في الإلهية، والقدم، أو أن أفعاله واحدة، بمعنى: أن جميع أفعاله طبق الصلاح، والإحسان؛ ولا يجر نفعا لنفسه، و﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، يعني: أنه سيد كريم إليه مرجع الناس في الحوائج، أو أنه صمد، بمعنى: أنه لا جوف له، فلا يتولد منه شيء، ولا يتولد هو من شيء؛ وليس له أحد

شبيها ونظيرا؛ وهذا بيان عرفي عامّي مقابل الكفار، الذين كانت لهم آلهة متصفة بالصفات الإمكانية، فأمر النبي الأكرمﷺ أن يقول لهم: **ليس إلهنا كإلهكم، بل أوصافه هذه الأوصاف المذكورة؛ هذا التفسير من طريق العرف، والعادة؛ ويختص بطائفة، ولا ينافي أن يكون لها معنى، أو معان، أدقّ كما ذكرنا بعضها.**

تفسير حكمي

يمكن أن يكون للسورة المباركة، التي نزلت للمتعمقين في آخر الزمان، تفسير حكمي موافق للموازين الحكمية، والبراهين الفلسفية، وهذا ما أفدته عن الشيخ الجليل الشاه آبادي (مدّ ظلّه):

فـ ﴿هُوَ﴾ إشارة إلى صرف الوجود، والهوية المطلقة، وهو برهان على ستة براهين شامخة حكمية، أُثبتت في السورة المباركة للحق تعالى.

الأول: مقام الألوهية، وهو مقام استجماع جميع الكمالات، وأحدية جمع الجمال والجلال.

الثاني: إشارة إلى البساطة التامة، العقلية، والخارجية، والماهوية، والوجودية، والتنزّه عن مطلق التركيبات العقلية، سواء أكانت جنسا، أو فصلا؛ سواء أكانت مادة، وصورة عقلية، أو خارجية، أو مادة، وصورة خارجية، أو أجزاء مقدارية.

الثالث: مقام الصمدية: إشارة إلى نفي الماهية، وعدم الجوف له؛

وكونه غير مجوف، إشارة إلى أنه ليس له الماهية، ولا النقص الإمكاني؛ لأن جميع الممكنات مرتبة ذاتها التي هي بمنزلة باطنها، وجوفها، مجوفة وخالية، ولما كانت الذات المقدسة صرف الوجود، والهوية المطلقة ليس له النقص الإمكاني، الذي أصله الماهية، لأن الماهية منتزعة من الحدود الوجودية، واعتبارها من تعيّن الوجود. وصرف الوجود منزه ومبرّأ عن الحد، والتعيّن، لأن كل محدود هوية مقيدة، ووجود مخلوط، لا الوجود المطلق، ولا الصرف.

الرابع: عدم انفصال شيء منه؛ لأن انفصال شيء عن شيء، مستلزم للهيولوية، بل للأجزاء المقدارية؛ وهو ينافي الهوية المطلقة، وصرافة الوجود؛ ووجود المعلولات من العلة ليس بطريق الانفصال، بل بطريق التجلي، والظهور، والتشأن، والصدور؛ ولا ينقص من صدورها شيء من العلة؛ ولا يزاد برجوعها شيء إلى العلّة.

الخامس: عدم انفصاله عن شيء، وهو لأنّ الانفصال عن شيء، فضلا عن المفسدة السابقة، ينافي صرافة الوجود، وإطلاق الهوية من طريق آخر، لأنه يلزم أن يتقدم صرف الوجود شيء آخر، وقد ثبت في الفلسفة العالية، أن الصرف أقدم الأشياء، والمتعين متأخر عن المطلق.

السادس: عدم الكفؤ، والمثل، ونفي المثل، والشبيه، وهو أيضا ببرهان صرف الوجود ثابت لا ينكر، فلا تتصور هويتان مطلقتان، وليس المقيد للمطلق صنوا ونظيرا.

حكمة مشرقية

هذه السورة المباركة، على الرغم من كمال اختصارها، مشتملة على جميع الشؤون الإلهية، ومراتب التسبيح والتنزيه؛ فهي نسبة الحق تعالى بما يمكن أن يقع في قالب الألفاظ، ونسيج العبارات؛ كما أن ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مشتمل على جميع الصفات الثبوتية، ومن ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ إلى آخر السورة، الصفات التنزيهية، وإشارة إلى سلب النقائص.

وفي السورة الشريفة إثبات الخروج من الحدّين: حد التعطيل، وحدّ التشبيه؛ اللذين كلاهما خروج عن حد الاعتدال، وحقيقة التوحيد، فالآية الشريفة الأولى إشارة إلى نفي التعطيل، وتتمة السورة إشارة إلى نفي التشبيه.

وهي مشتملة على الذات من حيث هي، ومقام الأحدية؛ وهو التجلي بالأسماء الذاتية؛ ومقام الواحدية؛ وهو التجلي بالأسماء الذاتية؛ ومقام الواحدية وهو التجلي بالأسماء، والصفات، كما ذكر تفصيله بما يناسب.

تتميم

عن أبي عبد الله الصادق، عن أبيه الباقر عليهما السلام، في قول الله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ قال:

﴿قُلْ﴾، أي: أظهر ما أوحينا إليك، ونبّأناك به، بتأليف الحروف،

التي قرأنا لك، ليهتدي بها من ﴿أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

و﴿هُوَ﴾: اسم مكني يشار به إلى الغائب، فالهاء تنبيه عن معنى ثابت؛ والواو إشارة إلى الغائب عن الحواس، كما أن قولك «هذا» إشارة إلى الشاهد عند الحواس، وهذه الإشارة إلى الغائب، لأن الكفار نبّهوا عن آلهتهم بحرف إشارة الشاهد المدرك، فقالوا: هذه آلهتنا المحسوسة المدركة بالأبصار، فأشر أنت يا محمد إلى إلهك الذي تدعو عليه حتى نراه، وندركه، ولا نتألّه فيه؛ فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فالهاء تثبيت الثابت، والواو تشير إلى الغائب عن درك الأبصار، ولمس الحواس، والله تعالى عن ذلك، بل هو مدرك الأبصار، والحواس»[1].

وقال الباقر عليه السلام: «**معناه: المعبود، الذي أله الخلق عن درك ماهيته، والإحاطة بكيفيته**، ويقول العرب: **أله الرجل، إذا تحيّر في الشيء، فلم يحط به علما؛ وولهه، إذا فزع إلى شيء مما يحذره، أو يخافه؛ فالإله هو المستور عن حواس الخلق**»[2].

وروى الباقر عليه السلام عن أبيه الحسين عليه السلام، أنه قال: «**الصمد: الذي لا جوف له؛ والصمد: الذي قد انتهى سؤدده؛ والصمد: الذي لا يأكل،**

(١) التوحيد: ٨٨، ح١

(٢) التوحيد: ٨٩، ح٢

ولا يشرب؛ والصمد: الذي لا ينام؛ والصمد: الدائم الذي لم يزل، ولا يزال»[١].

في تفسير سورة القدر المباركة

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[٢]

في هذه الآية الشريفة مطالب عالية منها:

المطلب الأول: في أن الآية الشريفة، وكثيرا من الآيات الشريفة، تنسب تنزيل القرآن إلى ذاته المقدسة كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[٣]، وفي بعضها تنسب إلى جبرائيل، وهو الروح الأمين، كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾[٤].

إنّ جميع دار التحقق فانية في الحق، ذاتا، وصفة، وفعلا؛ لأنه لو استقل موجود من الموجودات في شأن من الشؤون الذاتية، سواء أكان في الهوية الوجودية، أم في شؤونها، لخرج عن حدود بقعة الإمكان؛ فيتبدل إلى الوجوب الذاتي، وهذا واضح البطلان؛ فإذا رسخت هذه اللطيفة الإلهية في القلب، وذاقها الفؤاد، كما ينبغي، فيكشف له سرّ من أسرار القدر،

---

(١) التوحيد: ٩٠، ح٣

(٢) القدر: ١

(٣) الدخان: ٣

(٤) الشعراء: ١٩٣

وتنكشف لطيفة من حقيقة الأمر بين الأمرين، فيمكن إذًا نسبة الآثار، والأفعال، الكمالية، إلى الخلق، بالنسبة نفسها التي لها إلى الحق، من دون أن تكون مجازا في جانب؛ وهذا يتحقق في نظر الوحدة في الكثرة، والجمع بين الأمرين، والآية الشريفة: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[1]، التي نفت الرمي في عين إثباته، وأثبتته في عين نفيه، تشير إلى هذا المشرب العرفاني الأحلى، والمسلك الإيماني الدقيق؛ وإن ما قلنا من نسبة الأفعال، والآثار، إلى الله سبحانه، وقيّدناها بالكمالية، لنخرج النقائص من هذه النسبة، لأن النقائص ترجع إلى الأعدام، وهي من تعينات الوجود، وليست منسوبة إلى الحق إلا بالعرض.

إذا علمت هذه المقدمة، تعلم نسبة التنزيل إلى جبرائيل، وإلى الحق، والإحياء إلى إسرافيل، وإلى الحق، والإماته إلى عزرائيل، والملائكة الموكلة على النفوس، وإلى الحق.

المطلب الثاني: في الإشارة إلى نكتة أنه تعالى قال «**إنّا**» بصيغة الجمع، و﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ بصيغة الجمع؛ نكتة ذلك هي تفخيم مقام الحق تعالى، بمبدئيّته لتنزيل هذا الكتاب الشريف؛ ولعل هذه الجمعية باعتبار الجمعية الأسمائية؛ والإشارة إلى أن الحق تعالى مبدأ لهذا الكتاب الشريف بجميع الشؤون الأسمائية، والصفاتية؛ ولهذه الجهة كان هذا الكتاب

(١) الأنفال: ١٧

الشريف صورة أحدية جمع جميع الأسماء، والصفات؛ ومعرفا لمقام الحق المقدس بتمام الشؤون، والتجليات.

وبعبارة أخرى: هذه الصحيفة النورانية صورة الاسم الأعظم، كما أن الإنسان الكامل صورة الاسم الأعظم، بل حقيقة هذين في الحضرة الغيبية واحدة، وهما في عالم التفرقة متفرقان، بحسب الصورة، ولكن بحسب المعنى لا يتفرقان؛ وهذا أحد معاني «**لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض**»[١].

في كيفية نزول القرآن الكريم

إن القلوب التي تسير إلى الله بطريق السلوك المعنوي، والسفر الباطني؛ وتهاجر من منزل النفس المظلم، وبيت الإِنّيّة، والأنانية، طائفتان، بالطريق الكلّي:

الطائفة الأولى: هم الذين يدركهم الموت بعد إتمام السفر إلى الله، ويبقون في هذه الحال من الجذبة، والفناء، والموت، فقد وقع أجرهم على الله؛ وهؤلاء محبوبون فانون تحت قباب الله، لا يعرفهم أحد، ولا يرتبطون بأحد، ولا يعرفون أحدا، إلا الحق تعالى «**أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري**»[٢].

---

(١) الكافي: ٤١٥/٢، باب: أدنى ما يكون به العبد مؤمنا، ح: ١.
(٢) إحياء علوم الدين: ١٤٧/١٤

الثانية: الذين فيهم قابلية أن يرجعوا إلى أنفسهم بعد تمامية السير إلى الله، وفي الله، وتحصل لهم حالة الصحو، والتنبيه، هؤلاء الذين قدّر استعدادهم بحسب تجلّي الفيض الأقدس، الذي هو سر القدر، وانتجبهم لتكميل العباد، وتعمير البلاد، وهؤلاء بعد الاتصال بالحضرة العلمية، والرجوع إلى حقائق الأعيان، يحصل لهم السير في الأعيان بالكشف، فيتصلون بحضرة القدس، ويكون سفرهم إلى الله، وإلى السعادة، ويخلّعون بخلعة النبوة؛ وهذا الكشف وحي إلهي قبل التنزّل إلى عالم الوحي الجبرائيلي، وبعدما توجهوا من هذا العالم إلى العوالم النازلة، يكتشفون ما في الأقلام العالية، والألواح القدسية، بقدر إحاطتهم العلمية، ونشأتهم الكمالية المختصة بهم، التابعة للحضرات الأسمائية؛ واختلاف الشرائع والنبوات بل جميع الاختلافات من هنا.

وفي هذا المقام، تلك الحقيقة الغيبية، والسريرة القدسية، التي شوهدت في الحضرة العلمية، والأقلام، والألواح العالية، تنزل إلى قلوبهم المباركة، مرة: من طريق غيب النفس، وسرّ روحهم الشريف بتوسط ملك الوحي، وهو جبرائيل؛ وثانية: يتمثل لهم جبرائيل تمثلا مثاليا في حضرة المثال، وثالثة: يتمثل تمثلا ملكيا، وبتوسّط تلك الحقيقة يظهر عن مكمن الغيب إلى مشهد عالم الشهادة؛ ويتنزل بتلك اللطيفة الإلهية، وصاحب الوحي يدركها، ويشاهدها في كل نشأة على طور، ففي

الحضرة العلمية على طور؛ وفي حضرة الأعيان على طور ثان؛ وفي حضرات الأقلام على طور ثالث؛ وفي حضرات الألواح على طور رابع، وفي حضرة المثال على طور خامس، وفي الحس المشترك على طور سادس، وفي الشهادة المطلقة على طور سابع؛ وهذه سبع مراتب من التنّزل، ولعل نزول القرآن على سبعة أحرف إشارة إلى هذا المعنى، وهذا لا ينافي قوله عليه السلام: «**القرآن واحد نزل من عند واحد**»[1].

المطلب الرابع: في سر (هاء) في ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾

قد علم أن للقرآن قبل التنزل إلى هذه النشأة مقامات وكينونات، فمقامه الأول: كينونته العلمية في الحضرة الغيبية بالتكلم الذاتي، والمقارعة الذاتية، بطريق أحدية الجمع، ولعل ضمير الغائب إشارة إلى ذاك المقام؛ وقد ذكره الله تعالى بضمير الغيبة، لإفادة هذا المعنى، فكأنه يقول: هذا القرآن النازل في ليلة القدر، هو ذاك القرآن العلمي في السرّ المكنون، والغيبي في النشأة العلمية، قد أنزلناه على تلك المراتب، وكان متحدا في مقام مع الذات؛ وكان من التجليات الأسمائية، وهذه الحقيقة الظاهرة، ذلك السرّ الإلهي؛ وهذا الكتاب الذي ظهر في كسوة العبارات، والألفاظ، هو صورة التجليات الذاتية في مرتبة الذات، وعين التجلي

(١) الكافي: ٢/ ٦٣٠، كتاب: الإيمان والكفر، باب: النوادر، ح: ١٢

الفعلي في مرتبة الفعل، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**وإنما كلامه سبحانه فعل منه**»[١].

في بيان ليلة القدر

وفيه أمور منها:

أ) في وجه تسمية ليلة القدر

لذلك وجهان:

الوجه الأول: تسميتها ليلة القدر، لأنها صاحبة شرف، ومنزلة؛ وقد نزل فيها القرآن صاحب القدر، بتوسط ملك صاحب القدر، على رسول صاحب القدر، لأمة صاحبة القدر؛ فلهذا سميت بليلة القدر؛ فهي ليلة وصال النبي الخاتم، وليلة وصول العاشق الحقيقي إلى محبوبه، وقد علم في المباحث السابقة، أن تنزل الملائكة، ونزول الوحي، يكون بعد حصول الفناء، والقرب الحقيقي.

ويفاد من الأخبار الكثيرة، والآيات الشريفة، أن شرف الأزمنة، والأمكنة، ونحوستها، بسبب الوقائع فيها؛ وهذا يعلم بمراجعتها، وإن كان يفاد من بعضها الشرف الذاتي أيضا.

---

(١) نهج البلاغة: ٢٧٤، الخطبة: ١٨٦

الوجه الثاني: تسميتها ليلة القدر لتقدير الأمور، والآجال، وأرزاق الناس في تلك الليلة.

ب) في حقيقة ليلة القدر

إنّ لكل رقيقة، ولكل صورة ملكية، باطنًا، ملكوتيًا، وغيبيًّا؛ وأهل المعرفة يقولون: إن مراتب نزول حقيقة الوجود باعتبار احتجاب شمس الحقيقة في أفق تعينات الليالي، ومراتب الصعود، باعتبار خروج شمس الحقيقة من آفاق تعينات الأيام؛ وإن شرافة الأيام، والليالي، ونحوستها، تتضح بحسب هذا البيان.

وباعتبار قوس النزول، فليلة القدر المحمدية؛ وباعتبار قوس الصعود فيوم القيامة الأحمدية؛ لأن هذين القوسين مدّ النور المنبسط، الذي هو الحقيقة المحمدية، وجميع التعيينات هي من التعين الأولي للاسم الأعظم.

في نظر الوحدة، العالم ليلة القدر، ويوم القيامة، وليس أكثر من ليلة واحدة، ويوم واحد، وهذا تمام دار التحقق؛ أي: ليلة القدر المحمدية، ويوم القيامة الأحمدية، ومن تحقق بهذه الحقيقة فهو دائما في ليلة القدر، ويوم القيامة وهذان يجتمعان.

وباعتبار نظر الكثرة، تظهر الليالي، والأيام، فبعض الليالي صاحبة القدر، وبعضها ليست بصاحبة القدر، وبين جميع الليالي البنية الأحمدية،

والتعين المحمدي صلى الله عليه وآله التي غرب في أفقها نور حقيقة الوجود بجميع شؤونه، وكذلك الأسماء، والصفات، بكمال نوريتها، وتمام حقيقتها، قد غربت فيها هي ليلة القدر المطلقة، كما أن اليوم المحمدي يوم القيامة؛ وأما سائر الليالي، والأيام، فهي ليال، وأيام مقيّدة؛ ونزول القرآن في هذه البنية الشريفة، والقلب المطهّر، نزول في ليلة القدر، فالقرآن كما أنه نزل جملة في ليلة القدر بطريق الكشف المطلق الكلي، كذلك نزل نجوما في خلال ثلاث وعشرين سنة نجوما في ليلة القدر، والشيخ شاه آبادي (دام ظله) كان يقول: ليلة القدر هي الدورة المحمدية، وهذا إمّا باعتبار أنّ جميع الأدوار الوجودية هي الدورة المحمدية؛ وأما إن في هذه الدورة الأقطاب الكمّل المحمدية، والأئمة الهداة المعصومين ليالي القدر.

ويدل على هذا ما ذكرنا من حقيقة ليلة القدر، الحديث الشريف، أن نصرانيا قال لموسى بن جعفر عليه السلام: عن تفسير باطن قوله تعالى: «﴿حمٓ ۞ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۞ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۞ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾[1] ؟ فقال عليه السلام: أما ﴿حمٓ﴾ فمحمد، وأما ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ فأمير المؤمنين علي؛ وأما الليلة ففاطمة عليها السلام»[2].

(١) الدخان: ١ ــ ٤

(٢) الكافي: ج١/٤٧٩، باب: مولد أبا الحسن موسى.، ح٤

وفي رواية عن عبد الله بن عجلان السكوني، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «**بيت علي، وفاطمة، حجرة رسول الله صلى الله عليه وآله، وسقف بيتهم عرش رب العالمين، وفي قعر بيوتهم فرجة مكشوطة إلى العرش معراج الوحي. والملائكة تنزل عليهم بالوحي صباحا ومساء، وكل ساعة وطرفة عين، والملائكة لا تنقطع أفواجهم، فوج ينزل وفوج يصعد وإن الله تبارك وتعالى كشف لإبراهيم عليه السلام عن السماوات حتى أبصر العرش، وزاد الله في قوّة ناظره، وإن الله زاد في قوة ناظر محمد، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام وكانوا يبصرون العرش ولا يجدون لبيوتهم سقفا غير العرش، فبيوتهم مسقفة بعرش الرحمن، ومعارج الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام**.. قال: قلت: من كل أمر سلام ؟ قال: **بكل أمر**، فقلت: هذا التنزيل ؟ قال: **نعم**»[1].

والتدبر في هذا الحديث الشريف يفتح أبوابا من المعرفة لأهلها، فتنكشف له نبذة من حقيقة الولاية، وباطن ليلة القدر.

ت) مظاهر ليلة القدر

يمكن أن يجمع بين الأقوال، والأخبار، التي وردت في تعيين ليلة القدر، بأن الليالي الشريفة التي وردت في الروايات كلها من مظاهر ليلة

(١) بحار الانوار: ج٢٥/٩٧، ح٧١

القدر، إلا أنه يفرق بعضها في الشرافة، وكمال المظهرية؛ وفي روايات العامة والخاصة اختلافات، وفي روايات الخاصة ذكر بالترديد في ليلة التاسع عشر، والحادي والعشرين، والثالث والعشرين؛ وفي بعضها الترديد بين الحادي والعشرين، والثالث والعشرين.

فعن أبي عبد الله عليه السلام: «**هي ليلة إحدى وعشرين، أو ثلاث وعشرين. وعن عبد الواحد بن المختار الأنصاري قال: سألت أبا جعفر عن ليلة القدر**، قال: «**في ليلتين: ليلة إحدى وعشرين، وثلاث وعشرين؛ فقلت: أفرد لي أحدهما؛** قال: **وما عليك أن تعمل في ليلتين هي إحداهما**. وعن أبي عبد الله عليه السلام: «**اطلبها في تسع عشرة، وإحدى وعشرين، وثلاث وعشرين**»[1].

وقال السيد العابد الزاهد ابن طاووس رحمه الله: اعلم أن هذه الليلة الثالثة والعشرين من شهر رمضان، وردت أخبار صريحة بأنها ليلة القدر على الكشف والبيان»[2]

تنبيه عرفاني

معنى ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ في السورة المباركة القدر: إنّا أنزلنا الحقيقة الشريفة القرآنية، واللطيفة المقدسة الإلهية، في ليلة القدر المحمدية، بسم الله، الذي هو

(١) مجمع البيان: ج١٠/٤٠٧

(٢) إقبال الأعمال: ١/٣٧٤

الحقيقة الجمعية الأسمائية، والاسم الأعظم الربوبي، المتعين بالرحمة المطلقة الرحمانية، والرحيمية؛ فعلى هذا الاحتمال كأن الذات المقدسة تقول: إنّا بالتجلي بمقام الاسم الأعظم، وهو مقام أحدية الجمع، والتفصيل بظهور رحمة الرحمانية، والرحيمية، نزّلنا القرآن في ليلة القدر المحمدية، ولما كان في عالم الفرق، بل فرق الفرق، حصلت الفرقانية بين القرآنين: الكتاب الإلهي، والحقيقة المحمدية، فواصلنا بين القرآنين، وجمعنا بين الفرقانين في ليلة الوصال، وهذه الليلة لا يعرف أحد قدرها كما ينبغي غير خاتم النبيين صاحبها بالأصالة، وأوصيائه المعصومين، أصحابها بالتبعية.

في فضل ليلة القدر

عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «**قال موسى: إلهي، أريد قربك؛ قال: قربي لمن استيقظ ليلة القدر. قال: إلهي، أريد رحمتك، قال: رحمتي لمن رحم المساكين ليلة القدر. قال: إلهي أريد الجواز على الصراط، قال: ذلك لمن تصدّق في ليلة القدر؛ قال: إلهي، أريد من أشجار الجنة، وثمارها؛ قال: ذلك لمن سبّح تسبيحة في ليلة القدر؛ قال: إلهي أريد النجاة، قال: النجاة من النار؟ قال: نعم، قال: ذلك لمن استغفر في ليلة القدر؛ قال: إلهي، أريد رضاك، قال: رضائي لمن صلى ركعتين في ليلة القدر**»[1].

(١) وسائل الشيعة: ج٨/٢٠، ح١٠٠١٩

وعنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «**تفتح أبواب السماء في ليلة القدر، فما من عبد يصلى فيها إلا كتب الله تعالى له بكل سجدة شجرة في الجنة، لو يسير الراكب في ظلّها مائة عام لا يقطعها؛ وبكل ركعة بيتا في الجنة من در، وياقوت، وزبرجد، ولؤلؤ؛ وبكل آية تاجا من تيجان الجنة؛ وبكل تسبيحة طائرا من العجب؛ وبكل جلسة درجة من درجات الجنة؛ وبكل تشهّد غرفة من غرفات الجنة؛ وبكل تسليمة حلّة من حلل الجنة؛ فإذا انفجر عمود الصبح، أعطاه الله من الكواعب المؤلفات، والجواري المهذبات، والغلمان المخلّدين، والنجائب المطيرات، والرياحين المعطرات، والأنهار الجاريات، والنعيم الراضيات، والتحف، والهديات، والخلع، والكرامات، ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وأنتم فيها خالدون**»[1].

وعن الباقر عليه السلام: «**من أحيا ليلة القدر، غفرت له ذنوبه، ولو كانت ذنوبه عدد نجوم السماء، ومثاقيل الجبال، ومكاييل البحار**»[2].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾

هذا التركيب للتفخيم، والتعظيم، وعظمة المطلب، وعظمة الحقيقة، ولا سيما بملاحظة المتكلم والمخاطب، فعلى الرغم من أن الحق تعالى

(١) الإقبال: ج١/٣٤٥

(٢) لإقبال: ج١/٣٤٦

جلّت قدرته، هو المتكلم؛ والرسول الأكرم هو المخاطب، على رغم هذا الوصف، ربما يكون المطلب ذا عظمة بمقدار لا يمكن إظهاره في نسج الألفاظ، وتركيب الحروف، والكلمات، فكأنه تعالى يقول: لا تدري ما ليلة القدر في حقيقتها العظيمة، ولا يمكن بيان حقيقتها، ونسج الحروف، والكلمات، ونظمها، لا يليق بتلك الحقيقة.

لهذا على الرغم من أن كلمة ﴿وَمَآ﴾ لبيان الحقيقة، فقد صرف النظر عن بيانها، وقال: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، فعرّفها بخواصها، وآثارها؛ لأن بيان حقيقتها غير ممكن، ويحتمل بحدس قوي أن تكون حقيقة ليلة القدر، وباطنها، غير هذه الصورة، والظاهر، وإن كان هذا الظاهر ذا أهمية، وعظمة؛ ولكن ليس بمنزلة يعبّر بهذا النحو من التعبير بالنسبة إلى رسول الله الولي المطلق، والمحيط على كل العوالم.

قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾

إذا لاحظنا الصورة الظاهرة الملكية لليلة القدر، فكونها خيرا من ألف شهر، بمعنى: إنها خير من ألف شهر، ليس فيها ليلة القدر، أو أنها، والعبادة، والطاعة فيها خير من ألف شهر، حمل اليهود فيها سلاحا ليقاتلوا في سبيل الله.

أو أن ليلة القدر خير من ألف شهر سلطنة بني فلان كما في الروايات الشريفة.

وإذا لوحظت حقيقة ليلة القدر، فيمكن أن يكون ألف شهر كناية عن جميع الموجودات، باعتبار أن ألف العدد الكامل، والمراد من الشهر أنواعها، يعني أن البنية الشريفة المحمدية، وهي الإنسان الكامل، خير من ألف نوع، وهي جميع الموجودات، كما قال بعض أهل المعرفة.

وقد لاح في نظر الكاتب احتمال آخر، وهو أن تكون ليلة القدر، إشارة إلى مظهر الاسم الأعظم، يعني المرآة التامة المحمدية؛ وألف شهر هي مظاهر الأسماء الأخر، ولما كان الحق تعالى واحدا، وألف اسم؛ واحد من الأسماء مستأثر في علم الغيب، فلهذه الجهة ليلة القدر أيضا مستأثرة، وليلة قدر البنية المحمّدية أيضا مستأثرة، ولا يطلّع عليها غير الذات المقدسة للرسول الخاتم.

قوله تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾

وفيه أمران:

الأمر الأول: حقيقة الملائكة وصنوفهم

إن لملائكة الله أصنافا كثيرة، وكثير منها مجرد، وكثير منها جسماني، برزخي، ولا يعلم جنود ربك إلا هو.. وأصنافها بحسب التقسيم الكلي الذي قالوا: إن الموجودات الملكوتية على طائفتين:

الطائفة الأولى: لا تعلّق به بعالم الأجسام، لا تعلقا حلوليّا، ولا تعلقا تدبيريا.

وهم قسمان:

القسم الأول: قسم يقال له الملائكة المهيمنة، وهم المستغرقون في جمال الجميل، والمتحيرون في ذات الجليل، وعن سائر الخلق غافلون، لا يتوجهون إلى سائر الموجودات؛ وفي الرواية: «**إن لله خلقا لا يعلمون أن الله خلق آدم وإبليس**»(١).

القسم الثاني: جعله الله تعالى، وسائط رحمته، وجوده؛ وهي مبادئ سلسلة الموجودات، وغاية أشواقها؛ ويقال لهذه الطائفة: أهل الجبروت، يرأسها الروح الأعظم، ولعل الآية الشريفة: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾(٢)، إشارة إلى هذه الطائفة من الملائكة، واختصاص الروح بالذكر، على الرغم من أنه من الملائكة لعظمته، وفي الآية الشريفة: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾(٣)،إشارة إلى ذلك أيضا. ويقال للروح باعتبار القلم الأعلى، قال ﷺ: «أول ما خلق الله القلم»(٤).

ويقال له باعتبار آخر: العقل الأول، قال ﷺ: «**أول ما خلق الله**

---

(١) بحار الانوار: ج٢٧/٤٥، ح٦، مع اختلاف يسير

(٢) القدر: ٤

(٣) النبأ: ٣٨

(٤) بحار الانوار: ج٥٤/٣١٣

العقل»[١]. وقال بعض: الروح: جبرائيل.. وعند الفلاسفة، جبرائيل: آخر الملائكة الكروبيين، وأنه الروح القدس؛ ويعتقدون أن الروح أول الملائكة الكروبيين. وفي الروايات الشريفة أن الروح أعظم من جبرائيل، فعن أبي بصير قال: «سألت أبا عبد الله عن قول الله عز وجل: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾[٢]. قال: **خلق أعظم من جبرائيل وميكائيل كان مع رسول الله وهو مع الأئمة وهو من الملكوت**»

وفي بعض الروايات، أن الروح ليس من الملائكة، بل أعظم من الملائكة، ولعل للروح في لسان القرآن، والأحاديث، إطلاقين؛ وله في لسان أهل الاصطلاح إطلاقات، فروح من صنوف الملائكة، وروح هو روح حضرات الأولياء، وليس من الملائكة، وأعظم منها. فبناء على هذا يمكن أن يكون الروح في السورة الشريفة باعتبار التنزّل في ليلة القدر: الروح الأمين، أو الروح الأعظم؛ وفي الآية الشريفة ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾[٣] الروح: هو الروح الإنساني، الذي هو مرتبة الكمال، أعظم من جبرائيل، وسائر الملائكة، وهو من عالم الأمر، بل ربما يتحد مع المشيئة التي هي الأمر المطلق.

---

(١) بحار الانوار: ج١/٩٧، ح٨

(٢) الإسراء: ٨٥

(٣) الإسراء: ٨٥

والطائفة الثانية: ما له التعلق بعالم الأجسام، حلوليّ أو تدبيري، أي: الملائكة الموكلة بالموجودات الجسمانية، والمدبرات فيها، ولها صنوف كثيرة، وطوائف لا تعدّ، لأن لكل موجود علوي، أو سفلي، فلكي، أو عنصري، وجهة ملكوتية، ينتقل بتلك الوجهة إلى عالم ملائكة الله، ويتصل بجنود الحق، كما أن الحق تعالى يشير إلى ملكوت الأشياء بقوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]

وقال النبي صلى الله عليه وآله في كثرة الملائكة، كما في الروايات: «**أطت السماء، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد، أو راكع**»[2].

الأمر الثاني: في كيفية نزول الملائكة على ولي الأمر

تنزل الملائكة والروح أعم من أن يكون في مرتبة القلب، أو الصدر، أو الحس المشترك للولي؛ أو أن يكون في بقاع الأرض، والكعبة، وحول قبر رسول الله، أو في البيت المعمور، بطريق التمثّل الملكوتي، أو الملكي؛ قال تعالى في شأن تنزل الروح الأمين على مريم: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[3].

وللأولياء الكمَّل يمكن أن يكون تمثل ملكوتي، وتروح جبروتي،

(١) يس: ٨٣

(٢) بحار الانوار: ٥٥/١٠٧، ح٥٣

(٣) مريم: ١٧

فلملائكة الله استطاعة الدخول في الملك، والملكوت؛ وقدرته، وقوته، على نحو التمثل؛ وللكمّل من الأولياء، قدرة الدخول في الملكوت، والجبروت على طور التروّح، والرجوع من الظاهر إلى الباطن.

وليعلم أنه لا يمكن تمثل الجبروتيّين، والملكوتيّين، في قلب البشر، وصدره، وحسه المشترك، إلا بعد خروجه من الجلباب البشري؛ وحصول المناسبة بينه، وبين تلك العوالم، وإلا فما دامت النفس مشتغلة بالتدبيرات الملكية، وغافلة عن تلك العوالم، لا يمكن أن تحصل لها هذه المشاهدات، أو التمثلات.

الأمر الثالث:

لما كانت ليلة القدر ليلة مكاشفة رسول الله، وأئمة الهدى عليهم السلام، فلهذا تنكشف لهم جميع الأمور الملكية عن غيب الملكوت؛ وتظهر لهم الملائكة الموكلة بكل أمر من الأمور لحضراتهم في نشأة الغيب، وعالم القلب، وتنكشف، وتعلم لهم جميع الأمور، التي قدرت للخلائق في مدة السنة؛ وكتبت في الألواح العالية، والسافلة، على نحو الكتابة الملكوتية، والاستجنان الوجودي، وهذه المكاشفة مكاشفة ملكوتية محيطة بجميع ذرات عالم الطبيعة، ولا يخفى على ولي الأمر شيء من أمور الرعية.

ولا ينافي أن ينكشف لهم في ليلة واحدة، أمر السنة، وفي حالة جميع الأمور، وفي لحظة جميع المقدرات الملكية، والملكوتية.

وتنكشف بالتدريج في أيام السنة الأمور اليومية على طريق الإجمال، والتفصيل.

قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾

هذه الليلة المباركة هي السلامة من الشرور، والبليات، والآفات الشيطانية، حتى مطلع الفجر؛ أو أنها سلام على أولياء الله، وأهل الطاعة، أو أن ملائكة الله التي تلاقيهم لتسلم عليهم من الله تعالى إلى طلوع الفجر.

تنبيه عرفاني

ليلة القدر تعبّر عن مراتب الوجود، وتعينات الغيب، والشهود بالليل، باعتبار احتجاب شمس الحقيقة في أفقهم، وبناء عليه، فليلة القدر هي ليلة احتجب فيها الحق تعالى، بجميع الشؤون، وأحدية جمع الأسماء، والصفات، التي هي حقيقة الاسم الأعظم، وهي التعين، والبنية، للولي الكامل، وهو في زمان رسول الله ﷺ نفسه المقدسة، وبعده أئمة الهدى واحدا بعد واحد، فبناء على هذا ففجر ليلة القدر هو وقت ظهور آثار شمس الحقيقة من خلف حجب التعينات، وطلوع الشمس من أفق التعينات فجر يوم القيامة أيضا؛ ولما كان من مدة الغروب، واحتجاب شمس الحقيقة، في أفق تعينات هؤلاء الأولياء الكمل، إلى

وقت طلوع الفجر؛ وهو مدّة ليلة القدر، تلك الليلة صاحبة الشرف، سالمة من التصرفات الشيطانية مطلقا، وكما احتجبت الشمس من دون كدورة، وبلا تصرفات شيطانية، تطلع بهذه الصفة، فقال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾[1]؛ أما سائر الليالي فهي: إما أن السلامة ليست فيها أصلا، وهي ليالي بني أميّة، وأمثالهم؛ وإمّا أنها فاقدة للسلامة بمجموع معانيها، وهي ليالي سائر الناس.

خاتمة

قد علم من البيانات العرفانية، والمكاشفات الإيمانية، التي ظهرت بتأييد من الأولياء العظام على القلوب المنيرة لأهل المعرفة، أنّ السورة الشريفة نسبة أهل بيت العظام، فعن أبي عبد الله في صلاة النبي في السماء في حديث الإسراء قال: «**ثم أوحى الله (عز وجل) إليه: اقرأ يا محمد نسبة ربك تبارك وتعالى؛** ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ * وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾. **وهذا في الركعة الأولى ثم أوحى الله (عز وجل) إليه اقرأ بالحمد لله، فقرأها مثلما قرأ أولا ثم أوحى الله إليه: اقرأ: إنّا أنزلناه فإنها نسبتك ونسبة أهل بيتك إلى يوم القيامة**»[2].

---

(١) القدر: ٥

(٢) الكافي: ج٣/٤٨٦، باب: النوادر، ح١، اختلاف يسير

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «من قرأ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، يجهر بها صوته كان كالشاهر سيفه في سبيل الله، ومن قرأها سرّا، كان كالمتشحط بدمه في سبيل الله، ومن قرأها عشر مرات، غفرت له على نحو ألف ذنب من ذنوبه»[1].

اعتذار

كان في نية الكاتب في هذه الرسالة أن يكفّ عن المطالب العرفانية غير المأنوسة النوع، ويكتفي بالآداب القلبية فقط للصلاة.. والآن أرى أن القلم قد طغى، وفي خصوص تفسير السورة الشريفة قد تجاوزت عن الموضوع المقرّر عندي، فلا بدّ لي من أن أعتذر للأخوة الإيمانيين، والأخلاّء الروحانيين، فأقول: إذا رأيتم في هذه الرسالة مطلبا غير مطابق لذوقكم، فلا ترموه بالباطل بلا تأمّل؛ لأن لكل علم أهل، ولكل طريق سالك، وقد يظنّ أن بعض مطالب هذه الرسالة تفسير بالرأي، وهذا الظنّ خطأ محض، وافتراء فاحش لأنه:

أولا: أن هذه المعارف واللطائف كلها مفادة من القرآن الشريف، والأحاديث الشريفة.

ثانيا: جميع تلك المعارف، أو أكثرها، موافقة للبراهين العقلية، أو

---

(١) الكافي: ج٢/٦٢١، باب: فضل القران، ح٦

العرفانية، والأمر بهذه الصفة لا يكون تفسيرا بالرأي.

ثالثا: ما ذكرنا من المطالب في بيان الآيات الشريفة، هو من قبيل بيان مصاديق المفاهيم غالبا؛ وبيان المصداق، ليس بتفسير أصلا حتى يكون تفسيرًا بالرأي.

ورابعا: ذكرنا المطالب في الموارد غير الضرورية على سبيل الاحتمال، وبيان أحد المحتملات رعاية لغاية الاحتياط في الدين، مع أنه ليس هنا محل للاحتياط، ومن المعلوم أن باب الاحتمال ليس مسدودا على أحد، وليس مربوطا بالتفسير بالرأي.

الفصل الخامس

في آداب الركوع والسجود والتشهد والتسليم

أولا: في الركوع

أ) في التكبير قبل الركوع

الظاهر أن هذا التكبير من متعلقات الركوع، ولتهيّؤ المصلي للدخول إلى منزل الركوع؛ وأدبه أن ينظر المصلي إلى مقام عظمة الحق، وجلاله، وعزة الربوبية، وسلطنتها؛ ويجعل ضعف العبودية، وعجزها، وفقرها، وذلّها، نصب عينه؛ وفي هذا الحال يكبر الحق تعالى عن التوصيف بمقدار معرفته عن الربوبية، وذل العبودية؛ ويلزم أن يكون توصيف العبد السالك الحق تعالى، وتسبيحه، وتقديسه إيّاه، لإطاعة الأمر محضا، ولأذن الحق تعالى في التوصيف، والعبادة؛ وإلا فليس لعبد ضعيف مثله تلك الجسارة لأن يجازف بالتوصيف، والتعظيم، في المحضر الربوبي؛ وهو في الحقيقة لا شيء؛ وما فيه فهو من المعبود العظيم الشأن؛ في مقام يقول علي بن الحسين بلسانه الأحلى، الذي هو لسان الله: «**أفبلساني هذا الكالّ أشكرك ؟**»[1].

---

(١) إقبال الاعمال: ج١/١٦٨

فإذا أراد العبد السالك أن يرد منزل الركوع الخطير، فلا بد له من التهيّؤ لذاك المقام، وأن يلقي بيده توصيفه، وتعظيمه، وعبادته، وسلوكه، على قفاه، ويرفع يده إلى حذاء الأذن، ويقلب كفيه الخاليتين حذاء القبلة، ويرد منزل الركوع صفر اليدين، وخالي الكفين، وبقلب مملوء بالخوف، والرجاء؛ خوف التقصير عن القيام بمقام العبودية، والرجاء الواثق بمقام الحس المقدس، إذ شرّفه، وأذن له، بالدخول إلى هذه المقامات، التي هي للخلّص من الأولياء، والكمّل من الأحبّاء.

ولعل الرفع بهذه الكيفية هو ترك لمقام القيام، وترك الوقوف إلى ذاك الحدّ، وإشارة إلى عدم التزوّد من منزل القيام.

والتكبير إشارة إلى التعظيم، والتكبير عن التوصيفات، التي صدرت في منزل القيام.

وعند أهل المعرفة، لما كان الركوع منزل توحيد الصفات، فتكبير الركوع تكبير عن هذا التوحيد، ورفع اليد إشارة إلى رفض صفات الخلق.

ب) في آداب الانحناء الركوعي

عمدة أحوال الصلاة ثلاثة، وسائر الأعمال، والأفعال، مقدّماتها، ومهيئات لها، وهي: القيام، والركوع، والسجود.

وأهل المعرفة يرون هذه الثلاثة إشارة إلى التوحيدات الثلاثة، ولتبيان

هذه المنازل نقول: لما كانت الصلاة معراج كمالي للمؤمن، مقرّب لأهل التقوى، فهي متقوّمة بأمرين، أحدهما مقدمة للآخر:

أحدهما: ترك رؤية النفس، الذي هو باطن التقوى.

والآخر: حبّ الله، وطلب الحق، وهو حقيقة المعراج، والقرب.

ولهذا ورد في الروايات الشريفة: «الصلاة قربان كل تقيّ»[1]، كما أن القرآن نور الهداية؛ ولكن للمتقين: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[2].

وبالجملة هذان المقامان، يحصلان في هذه المقامات الثلاثة بالتدريج، ففي حال القيام ترك لرؤية النفس بحسب مقام الفاعلية، ورؤية فاعلية الحق، وقيّومية الحق المطلق؛ وفي الركوع ترك لرؤية النفس بحسب مقام الصفات، والأسماء، ورؤية مقام أسماء الحق وصفاته، وفي السجود ترك لرؤية النفس مطلقا، وحب لله، وطلب لله مطلقا؛ وجميع منازل السالكين من شؤون هذه المقامات الثلاثة، وهو واضح لأصحاب البصيرة، ولأهل العرفان، والسلوك؛ فإذا توجّه السالك في هذه المقامات بأن سرّ هذه الأعمال، والتوحيدات الثلاثة، لكل مقام هو أدقّ، وألطف، فمن الضروري للسالك أن يراقبه مراقبة أكثر؛ لأن خطر المقام أشدّ، والزلل

---

(١) نهج البلاغة: ج٤/٣٤

(٢) البقرة: ٢

فيه أكثر، ففي مقام الركوع لما كان للسالك دعوى أنه ليس في دار الوجود علم، ولا قدرة، ولا حياة، ولا إرادة، سوى من الحق تعالى، وهذه الدعوى دعوة عظيمة، والمقام دقيق للغاية.

ت) تعظيم وتنبيه وتحقيق

قد ورد في صلاة المعراج لرسول الله صلى الله عليه وآله أنه خاطبه العزيز «**فانظر إلى عرشي**»؛ قال رسول الله: «**فنظرت إلى عظمة ذهبت لها نفسي وغشي عليّ، فألهمت أن قلت: سبحان ربي العظيم وبحمده، لعظم ما رأيت. فلما قلت ذلك تجلّى الغشي عني حتى قلتها سبعا، أُلهم ذلك، فرجعت إليّ نفسي كما كانت**»[1].

فانظر أيها العزيز إلى مقام عظمة سلوك سيد الجميع، وهادي السبل صلى الله عليه وآله أنه رأى في حال الركوع، وهو حال النظر إلى ما دون نفسه، نور العرش، ولما كان نور العرش في نظر الأولياء هو تجلي الذات بلا مرآة، فالتعين النفسي يرتفع، وتحصل حالة الغشي، والصعق، فساعدت الذات المقدسة بالعنايات الأزلية وجوده الشريف، ولقّن سبحانه الذات النبوية المقدسة التسبيح، والتعظيم، والتحميد، بالإلهام الحبّي، حتى سرى عنه الصعق بعدما قالها سبعا بعدد الحجب، وعدد مراتب

(١) علل الشرائع: ج٢/٣١٥

الإنسان، وحصلت له حالة الصحو. وهذه الأحوال كانت تداومه في جميع صلاة المعراج. ولما كان لا سبيل لنا إلى خلوة الأنس؛ ولا مكان لنا في مقام القدس، فالجدير أن نجعل رأس مالنا للوصول إلى المقصد، وعروتنا لحصول المطلوب، عجزنا، وذلّتنا؛ وإذا لم نكن من رجال هذا الميدان، فلعله تستشم أرواحنا رائحة من المعارف، ويهبّ نسيم لطف لقالبنا الميّت، وذلك لأن عادة الحق تعالى، الإحسان؛ وشيمته التفضّل، والإنعام؛ وليعلم أن الركوع مشتمل على تسبيح الرب جلّ وعلا، وتعظيمه، وتحميده؛ فالتسبيح تنزيه عن التوصيف، وتقديس عن التعريف؛ وإن التعظيم، والتحميد، خروج عن حدّي: التشبيه، والتعطيل؛ لأن التحميد يفيد الظهور في المرائي الخلقية؛ والتعظيم يرى سلب التحديد، فهو الظاهر، وليس في العالم أظهر منه، وفي الوقت نفسه ليس متلبّسا بلباس التعيّنات الخلقية.

ث) في أدب الركوع

عن الصادق عليه السلام: «**لا يركع عبد لله ركوعا على الحقيقة إلا زيّنه الله بنور بهائه، وأظلّه في ظلال كبريائه، وكساه كسوة أصفيائه؛ والركوع أول، والسجود ثان؛ فمن أتى بمعنى الأول، صلح للثاني؛ وفي الركوع أدب، وفي السجود قرب، ومن لا يحسن الأدب، لا يصلح للقرب؛ فاركع ركوع خاضع لله بقلبه، متذلل، وجِلٍ، تحت سلطانه، خافض له**

جوارحه، خفض خائف حزن على ما يفوته من فائدة الراكعين»[١]... **واستوف ركوعك باستواء ظهرك؛ وانحط على همتك في القيام بخدمته إلا بعونه؛ وفرّ بالقلب من وساوس الشيطان، وخدائعه، ومكائده؛ فإن الله تعالى يرفع عباده بقدر تواضعهم له، ويهديهم إلى أصول التواضع، والخضوع، بقدر اطلاع عظمته على سرائرهم»**[٢].

في هذا الحديث الشريف إشارات، وبشارات، وآداب، ووظائف، كما أن التزين بنور بهاء الله بشارات للوصول إلى مقام التعلم الأسمائي: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[٣]. والتحقق بمقام الفناء الصفاتي، وحصول حالة الصحو من ذلك المقام، لأن تزيين الحق تعالى العبد بمقام نور البهاء، هو تحقيق الله العبد بمقام الأسماء، الذي هو حقيقة تعليم الأسماء، وإظلاله في ظلّ الكبرياء؛ وهو من الأسماء القهرية، وتمكين الله العبد في فنائها إفناء العبد عن نفسه؛ وبعد هذا المقام إكساؤه بكسوة الأصفياء، إبقاؤه بعد الإفناء. ومن هنا يعلم أن السجود فناء ذاتي، لأن الركوع أول، وهو هذه المقامات، والسجود ثان فليس هو إلا مقام الفناء في الذات، ويعلم أيضا أن القرب المطلق الذي يحصل في السجود، لا

(١) مصباح الشريعة: ١١٩

(٢) مصباح الشريعة: ١١٩

(٣) البقرة: ٣١

يتيسّر إلا بحصول الركوع على الحقيقة، ومن أراد أن يصلح للثاني لا بد من أن يحصّل القرب الركوعي، وأدب الركوع، ثم أنه عليه السلام بعد بيان لطائف الركوع، والسجود، وسرائرهما، أشار إلى آدابه القلبية للمتوسطين، وهي أمور بعضها من الأمور العامة التي ذكرناها في المقدمات، وبعضها خاص بالركوع.

ج) في رفع الرأس من الركوع

سرّه الرجوع عن الوقوف في الكثرات الأسمائية، قال عليه السلام: «**وكمال التوحيد نفي الصفات عنه**»[1]؛ لأن العابد السالك بعدما حصلت له حالة الصحو من الفناء الأسمائي، يشاهد قصوره، وتقصيره، لأن مبدأ الخطيئة الآدمية، التي على الذرّية أن تجبرها، هو التوجه إلى الكثرات الأسمائية، التي هي باطن الشجرة، فإذا عرف العبد لنفسه، وهي ذرية آدم، خطيئتها، ولآدم، وهو الأصل، خطيئته، فيطلع على مقام تذلّله، ونقصانه؛ ويتهيأ لرفع خطيئته بخفض الجناح في حضرة الكبرياء؛ ويقيم صلبه عن هذا المقام، ويرفع الكثرات الأسمائية بعد رفع الرأس بالتكبير، ويتوجّه إلى منزل الذلّة، والمسكنة، وأصل الترابية، صفر اليد. وآدابه المهمّة هي عرفان عظم خطر المقام، وإذاقته القلب بالتذكر، والمجاهدة

(١) التوحيد: ٥٧، ح١٤

في التوجّه إلى حضرة الذات، وترك التوجّه إلى النفس حتى إلى مقام ذلّة نفسه.

إن التذكر التام لحضرة الحق، والتوجّه المطلق بباطن القلب إلى تلك الذات المقدسة، موجب لانفتاح العين الباطنية للقلب، ويحصل به لقاء الله، وهو قرّة عين الأولياء ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾[1].

ثانيًا: في السجود

أ) في سرّه الإجمالي

وهو عند أصحاب العرفان، وأرباب القلوب، ترك النفس، وغمض العين عمّا سوى الحق؛ والتحقيق بالمعراج اليونسي، الذي حصل بالنزول، والدخول في بطن الحوت، بالتوجّه إلى أصله بلا رؤية الحجاب؛ وفي وضع الرأس على التراب، إشارة إلى رؤية جمال الجميل في باطن قلب التراب، وأصل عالم الطبيعة؛ وآدابه القلبية عرفان حقيقة النفس، وأصل جذر وجوده، ووضع أم الدماغ، وهي مركز سلطان النفس، وعرش الروح، على أدنى عتبة مقام القدس، ورؤية عالم الأرض، والتراب، عتبة لمالك الملوك، فسرّ الوضع السجودي غمض العين عن النفس؛ وأدب وضع الرأس على التراب إسقاط أعلى مقامات

(١) العنكبوت: ٦٩

نفسه عن عينه، ورؤيتها أقل من التراب؛ وإذا كان في القلب شائبة في الدعاوى التي تشير الأوضاع الصلاتية اليها، فهو نفاق عند أرباب المعرفة، ولما كان خطر هذا المقام، أعظم الأخطار؛ فيلزم السالك إلى الله أن يتمسّك بذيل عناية الحق جلّ وعلا بجبلته الذاتية، وفطرته القلبية، ويسأله العفو عن التقصيرات بالذلّة، والمسكنة.

ب) آداب السجود عند الصادق عليه السلام

ورد عن الصادق عليه السلام: «**ما خسر، والله، من أتى بحقيقة السجود، ولو كان في العمر مرّة واحدة؛ وما أفلح من خلا بربّه في مثل ذلك الحال تشبيها بمخادع نفسه، غافلا، لاهيا عمّا أعده الله للساجدين من أنس العاجل، وراحة الآجل. ولا بعُد عن الله أبدا، من أحسن تقرّبه في السجود؛ ولا قرب إليه أبدا من أساء أدبه، وضيّع حرمته، بتعلّق قلبه بسواه في حال سجوده؛ فاسجد سجود متواضع لله تعالى، ذليل، علم أنه خُلق من تراب يطؤه الخلق؛ وأنه اتخذك من نطفة يستقذرها كل أحد، وكوّن ولم يكن؛ وقد جعل الله معنى السجود سبب التقرب إليه بالقلب، والسرّ، والروح؛ فمن قرب منه، بعد من غيره؛ ألا ترى في الظاهر أنه لا يستوي حال السجود إلا بالتواري عن جميع الأشياء، والاحتجاب عن كل ما تراه العيون، كذلك أمر الباطن، فمن كان قلبه متعلقا في صلاته بشيء دون الله تعالى، فهو قريب من ذلك الشيء، بعيد عن حقيقة ما أراد**

الله منه في صلاته، قال (عز وجل): ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾[١]، وقال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: لا أطلّع على قلب عبد، فاعلم فيه حب الإخلاص لطاعتي لوجهي، وابتغاء مرضاتي، إلا توليت تقويمه، وسياسته؛ ومن اشتغل بغيري، فهو من المستهزئين بنفسه؛ ومكتوب اسمه في ديوان الخاسرين»[٢].

ت) في ذكر السجود

في الحديث الشريف أنه لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾[٣]، «قال لنا رسول الله ﷺ: اجعلوها في ركوعكم، فلما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[٤]، قال لنا رسول الله ﷺ: **اجعلوها في سجودكم**»[٥].

وفي الحديث الشريف: «**فأول ما اختار لنفسه العلّي العظيم**»[٦]؛ ولعل العلّي هو الأول من الأسماء الذاتية، والعظيم الأول في الأسماء الصفاتية.

وفي السجود، كسائر الأوضاع الصلاتية، هيأة، وحالة، وذكرًا، وسرًّا؛ وهذه الأمور للكمّل؛ أما للمتوسطين فهيأته إراءة المتربة، وترك

---

(١) الأحزاب: ٤

(٢) مصباح الشريعة: ٩١

(٣) الواقعة: ٩٦

(٤) الأعلى: ١

(٥) علل الشراع: ج٢/٣٣٣، ح٦

(٦) الكافي: ج١/١١٣، باب: حدوث الاسماء، ح٢

الاستكبار، والعجب، وإرغام الأنف، وهو من المستحبات المؤكدة، بل تركه خلاف الاحتياط، إظهارا لكمال التخضع، والتذكّر، والتواضع، وهو التوجّه إلى أصله، والتذلل لنشأته.

إن وضع رؤساء الأعضاء الظاهرة على أرض الذلّة، والمسكنة، وتلك الأعضاء هي محال الإدراك، وظهور التحريك، والقدرة، وهي الأعضاء السبعة، أو الثمانية، علامة التسليم التام، وتقديم جميع القوى، والخروج عن الخطيئة الآدمية، فإذا قوي تذكر هذه المعاني في القلب، ينفعل بها تدريجا، فتحصل حالة هي حالة الفرار من النفس، وترك رؤية النفس، ونتيجة هذه الحالة حصول حالة الأنس، وتعقبها الخلوة التامة، وتظهر المحبة الكلية.

وأما ذكر السجدة، فمتقوّم بالتسبيح، وهو التنزيه عن التوصيف، وعن القيام بالأمر، أو التنزيه عن التكثير الأسمائي، أو التنزيه عن التوحيد؛ لأن التوحيد تفعيل؛ وهو الذهاب من الكثرة إلى الوحدة، وهذا لا يخلو عن شائبة التكثير، والتشريك؛ وإن التوصيف بالعلو الذاتي، والتحميد، ليس خاليا من شائبة هذه المعاني؛ والعلّي من الأسماء الذاتية، وعلى رواية الكافي هو أول اسم اتخذه الله لنفسه، يعني: هو أول تجلي الذات لنفسه؛ والعبد السالك إذا فني عن نفسه في هذا المقام، وترك العالم، وما فيه، فيناله الفخر بهذا التجلي الذاتي.

واعلم أنه لما كان الركوع أول، والسجود ثان، فيفترق التسبيح، والتحميد فيها بفروق؛ ويفرق الرب في المقامين؛ لأن الرب من الأسماء الذاتية، والصفاتية، والأفعالية، بالاعتبارات الثلاثة؛ فبناء على ذلك، فالرب في ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لعله من الأسماء الفعلية، بمناسبة مقام القيام؛ وهو مقام التوحيد الأفعالي؛ وفي الركوع من الأسماء الصفاتية، بمناسبة أن الركوع مقام توحيد الصفات؛ وفي السجود من الأسماء الذاتية، بمناسبة أن السجود مقام توحيد الذات. والتسبيح، والتحميد، الواقعان في كل مقام، يرتبطان بذلك المقام.

تنبيه عرفاني

إن السالك إلى الله، إذا فني عن فعله بالقدم العرفانية، وحصلت له حالة التوحيد الأفعالي، والمحو في المجال الفعلي، فالحق تعالى يتجلى لقلبه بحسب ما يناسبه؛ وكل تجلّ يحصل له في هذه الحالة، هو تجلّ أفعالي، ومن الأسماء الإفعالية؛ فإذا تجاوز عن التجليات الأفعالية، وأمّحى في حضرة الأسماء، والصفات، وحصل له الفناء الصفاتي، فتجليات الحق تعالى لقلبه تجليات بأسماء الصفات، وإخباراته من الأسماء الصفاتية. فإذا حصل له مقام المحو الذاتي، والفناء الذاتي، يتجلى الحق تعالى لقلبه بالأسماء الذاتية، وتكون مشاهداته مشاهدات الأسماء الذاتية، وإخباراته تكون عن هذا المقام.

والآن نقول: إن تجليات الحق في حضرة الأحدية، تجلّ بالأسماء الذاتية؛ وتجلّيه في الحضرة الواحدية تجلّ بأسماء الصفات؛ وتجلّيه في حضرات الأعيان الخارجية تجلّ بأسماء الأفعال، ولعل الآيات الشريفة في آخر سورة الحشر من: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[1].. إلى آخر السورة إشارة إلى المقامات الثلاثة، والله العالم.

ث) في أسرار السجدة وذكرها ورفع الرأس منها

سجدة الغشي، والصعق، كما في حديث المعراج، نتيجة مشاهدة أنوار العظمة للحق؛ فإذا صار العبد بلا حواس عن نفسه، وحصلت له حالة المحو، والصعق، فتشمله العناية الأزلية، ويلهم بالإلهام الغيبي؛ وذكر السجود، وتكراره، لحصول حالة الصحو، والإفاقة. فإذا أفاق تشتعل في قلبه نار اشتياق مشاهدة نور الحق، ويرفع الرأس عن السجدة، فيرى في نفسه بقايا من الأنانية، فيشير باليد إلى رفضها، فيتجلى له نور العظمة ثانيا، ويحرق بقية الأنانية، ويفنى من الفناء، وتحصل له حالة المحو الكلي المطلق، والصعق التام الحقيقي وهو يكبّر الله؛ فالمساعد الغيبي بإلهامه الأذكار، يمكنه في المقام، وتعرض له حالة الصحو في هذا المقام، وهو صحو الولاية، ومنزه عن كل احتجاب، واختلاط خلقي؛ وحالة التشهد،

(١) الحشر: ٢٢

والسلام، وهما من أحكام الكثرة، تحصل له أيضا في هذا الصحو، بعد المحو، وعند الوصول إلى هنا تتم وتكمل دائرة السير الإنساني.

ثالثا: في التشهُّد

أ) في آداب التشهُّد

اعلم أن الشهادة بالوحدانية، والرسالة، في الأذان، والإقامة؛ هما من متعلقات الصلاة، ومهيّئات الورود فيها؛ وفي التشهد، وهو الخروج من الفناء إلى البقاء، ومن الوحدة إلى الكثرة؛ وفي آخر الصلاة، تذكّر العبد السالك أن حقيقة الصلاة حصول التوحيد الحقيقي، والشهادة بالوحدانية من مقاماتها الشاملة، التي تكون مع السالك من أول الصلاة إلى آخرها؛ وفيها سرّ أولية الحق جل وعلا، وآخريته؛ وفيها سرّ عظيم، وهو أن سفر السالك من الله إلى الله، ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[1]؛ فللسالك أن يتوجّه في جميع المقامات إلى هذا المقصد، ويوصل إلى القلب حقيقة وحدانية الحق، وألوهيته؛ ويصنع القلب إلهيا في هذا السفر المعراجي، لتكون شهادته حقيقية، وتتنزّه عن النفاق والشرك؛ ولعل الشهادة بالرسالة إشارة إلى أن مساعدة الوليّ المطلق، والنبي الخاتم، في هذا المعراج السلوكي من المقامات الشاملة، التي لا بدّ للسالك من أن يتوجه إليها في جميع المقامات؛ ويتضح

(١) الأعراف: ٢٩

سرّ الأولية والآخرية، الذي هو من مقامات الولاية لأهلها؛ وليعلم أن ثمة فرقا بين الشهادة في أول الصلاة، والشهادة في التشهّد؛ لأن الشهادة في أولها، شهادة قبل السلوك، وهي شهادة تعبدية، أو تعقلية، وهذه التي في آخرها، شهادة بعد الرجوع؛ وهي شهادة تحققية، أو تمكّنيّة؛ فللشهادة في التشهد خطر عظيم، لأنها دعوى التحقق، والتمكن؛ ودعوى الرجوع إلى الكثرة بلا احتجاب، وهذا المقام الشامخ غير حاصل لأمثالنا، بل ليس من المتوقع حصوله، ونحن في هذه الحال، فالأدب في حضرة الباري أن ننظر إلى قصورنا، وذلّتنا، ونقصنا، وعجزنا، ومسكنتنا؛ ونتوجّه إلى جنابه المقدس بانفعال، ونقول: إلهنا ليس لنا من مقامات الأولياء، ومدارج الأصفياء، وكمال المخلصين، وسلوك السالكين، حظ سوى ألفاظ معدودة؛ وقنعنا عن جميع المقامات بقيل، وقال، ولا تحصل منه كيفية، ولا حال. إلهنا، حب الدنيا، وتعلقاتها، حجبنا عن حضرة القدس، ومحفل الأنس، إلا أن تساعدنا، نحن الساقطين، بلطفك الخفيّ، وتجبر ما سبق منا، فلعلنا نستيقظ من نوم الغفلة، ونجد طريقا إلى محضر القدس.

ب) آداب التَشهُّد عند الصادق عليه السلام

عن الصادق عليه السلام: «التشهّد ثناء على الله، فكن عبدا له في السرّ، خاضعا له في الفعل، كما أنك عبد له بالقول، والدعوى؛ وصل صدق لسانك بصفاء سرك، فإنه خلقك عبدًا، وأمرك أن تعبده بقلبك،

ولسانك، وجوارحك، وأن تحقق عبوديتك له بربوبيته لك، وتعلم أن نواصي الخلق بيده، فليس لهم نفس، ولا لحظ إلا بقدرته، ومشيئته، وهم عاجزون عن إتيان أقل شيء في مملكته إلا بإذنه، وإرادته. قال الله عز وجل: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1]؛ **فكن عبدًا شاكرًا بالفعل، كما أنك عبد ذاكر بالقول، والدعوى؛ وصل صدق لسانك بصفاء سرّك؛ فإنه خلقك فعز وجل أن تكون إرادة، ومشيئة، لأحد إلا بسابق إرادته، ومشيئته؛ فاستعمل العبودية في الرضا بحكمه، وبالعبادة في أداء أوامره؛ وقد أمر بالصلاة على نبيه صلى الله عليه وآله فأوصل صلاته بصلاته، وطاعته بطاعته، وشهادته بشهادته، وانظر لا يفوتك بركات معرفة حرمته، فتحرم فائدة صلاته، وأمره بالاستغفار لك، والشفاعة فيك؛ إن أتيت بالواجب في الأمر، والنهي، والسنن، والآداب، وتعلم جليل مرتبته عند الله عز وجل**»[2].

رابعًا: في التسليم

إذا رجع العبد السالك عن مقام السجود، الذي سره الفناء، وحصلت له حالة الصحو، والشعور؛ ورجع من حالة الغيبة عن الخلق إلى حال

(١) القصص: ٦٨

(٢) مصباح الشريعة: ٩٣ ـ ٩٤

الحضور؛ فيسلم على الموجودات سلام من رجع من السفر، والغيبة؛ ففي ابتداء الرجوع من السفر، يسلم على النبي الأكرم؛ لأنه بعد الرجوع من الوحدة إلى الكثرة، فالحقيقة الأولية هي تجلي حقيقة الولاية «**نحن الأولون السابقون**»[1]؛ ثم يتوجّه إلى أعيان سائر الموجودات على طريق التفصيل، والجمع، ومن لم يكن في صلاته غائبا عن الخلق، ولم يسافر إلى الله، فالسلام بالنسبة إليه بلا حقيقة، وليس إلا لقلقة لسان؛ فالأدب القلبي للسلام مرتبط بالأدب في جميع الصلاة، وإذا لم يحصل له في هذه الصلاة، التي هي حقيقة المعراج، عروج، ولم يخرج عن بيت النفس، فلا سلام له، وإذا كان له السلامة من تصرفات الشيطان، وتصرفات النفس الأمّارة، ولم يكن للقلب علة في طول هذا المعراج الحقيقي، فسلامه حقيقي، وإلا فلا سلام له. نعم السلام على النبيﷺ بناء على ذلك سلام حقيقي، لأنهﷺ في هذا السفر المعراجي، وفي هذا السير إلى الله، صعودا، ونزولا، متصف بالسلامة، وفي جميع السير عار، وبريء من تصرفات غير الحق.

عن الصادقعليه السلام: «**معنى السلام في دبر كل صلاة، الأمان؛ أي: من أدّى أمر الله، وسنّة نبيّهﷺ خاشعا منه قلبه، فله الأمان من بلاء الدنيا، وبراءة من عذاب الآخرة؛ والسلام اسم من أسماء الله تعالى، أودعه خلقه، ليستعملوا معناه في المعاملات، والأمانات، والإضافات، وتصديق مصاحبتهم فيما**

(١) بحار الانوار: ج٢٧/١٠٨، ح٨١

بينهم، وصحة معاشرتهم، وإذا أردت أن تضع السلام موضعه، وتؤدي معناه، فلتتق الله، وليسلم منك دينك، وقلبك، وعقلك؛ ولا تدنسها بظلمة المعاصي؛ ولتسلم حفظتك من أن تبرمهم، وتملّهم، وتوحشهم منك، بسوء معاملتك إياهم؛ ثم صديقك، ثم عدوكّ؛ فإن من لم يسلم منه من هو الأقرب إليه، فالأبعد أولى؛ ومن لا يضع السلام مواضعه هذه، فلا سلام، ولا تسليم (سلّم)، وكان كاذبا في سلامه، وإن أفشاه في الخلق»[1].

يشير عليه السلام إلى سرّ من أسرار السلام، ويقول: «**السلام اسم من أسماء الله تعالى أودعه خلقه**»، وهذه إشارة إلى مظهرية الموجودات للأسماء الإلهية، ولا بد للعبد السالك من أن يظهر هذه اللطيفة الإلهية، التي أودعت، واختفت في باطن ذاته، وخميرته، ويستعملها في جميع المعاملات، والمعاشرات، والأمانات، والارتباطات؛ ويشير بها إلى مملكة باطنه، وظاهره؛ ويستعملها في معاملة الحق، ودين الحق تعالى، لئلا يخون الوديعة الإلهية، فتسري حقيقة السلام إلى جميع قواه الملكية، والملكوتية، وفي جميع عاداته، وعقائده، وأخلاقه، وأعماله، لتسلم نفسه من جميع التصرفات، وعرّف عليه السلام التقوى طريقا لتحصيل هذه السلامة.

وليعلم أن للتقوى مراتب، ومنازل، فتقوى الظاهر هي حفظ الظاهر عن القذارات، وظلمة المعاصي القالبية؛ وهذه هي تقوى العامة. وتقوى

---

(١) مصباح الشريعة: ٩٥ـ٩٦

الباطن هي حفظه، وتطهيره، عن الإفراط، والتفريط، وعن التجاوز عن حد الاعتدال في الأخلاق، والغرائز الروحية، وهذه تقوى الخاصة. وتقوى العقل حفظه، وتطهيره، عن التصرف في العلوم الإلهية، والمراد من العلوم الإلهية ما يكون مرتبطا بالشرائع، والأديان الإلهية، وهذه تقوى أخصّ الخواص. وتقوى القلب حفظه عن مشاهدة غير الحق، ومذاكراته، وهذه تقوى الأولياء.

والمقصود من الحديث الشريف الذي يقول الحق تعالى فيه: «**أنا جليس من جالسني**»[1]، الخلوة القلبية. وهذه الخلوة هي أفضل الخلوات، والخلوات الأخر مقدمة لحصول هذه الخلوة. فمن اتصف بجميع مراتب التقوى، يسلم دينه، وعقله، وروحه، وقلبه، وجميع قواه الظاهرة، والباطنة، وتسلم حفظته الموكلة به، ولا تمل، ولا تضجر، ولا تتوحش منه؛ ومن كان بهذه الصفة، تكون معاملاته، ومعاشرته صديقه، وعدوه، بطريق السلامة، بل ينقطع جذر العداوة عن باطن قلبه، وإن كان الناس يعادونه؛ ومن لم يكن سالما في جميع المراتب، فهو محروم من فيض السلام بمقدار عدم سلامته، وقريب من أفق النفاق بمقدار ذلك، نعوذ بالله منه، والسلام.

---

(١) إقبال الأعمال ٣/١٧٤

خَاتِمَةُ الكِتَابِ

في آداب بعض
الأمور الداخلة والخارجة للصلاة

أولًا: في التسبيحات الأربع

وهي متقومة بأركان أربعة:

الركن الأول: التسبيح

التسبيح هو التنزيه عن التوصيف بالتحميد، والتهليل؛ وهو من المقامات الشاملة، والعبد السالك لا بد من أن يتوجّه إليه في جميع العبادات، ويحفظ قلبه عن دعوى التوصيف، والثناء على الحق؛ ولا يظنن أن في إمكان العبد القيام بحق العبودية، فضلا عن القيام بحق الربوبية، الذي انقطعت عنه أعين آمال الكمل، وتقاصرت عن ذيله أيدي الأكابر من أصحاب المعرفة فلهذه الجهة قالوا: إن كمال المعرفة لأهل المعارف، عرفان عجزهم.

وليعلم أن التحميد، والتهليل، متضمنان للتوحيد الفعلي، وفيهما شائبة التحديد، والتنقيص، بل شائبة التشبيه، والتخليط، فيلزم العبد السالك أن يجعل نفسه في حصن التسبيح والتنزيه، الحصين، ليتهيأ للورود فيه، ويفهّم باطن قلبه أن الحق، جلّت عظمته، منزّه عن التعينات

الخلقية، والتلبس بملابس الكثرات، كي يتنزّه وروده في التحميد عن شائبة التكثير.

الركن الثاني: التحميد

وهو مقام التوحيد الفعلي، الذي يناسب حال القيام والقراءة؛ فلهذا كانت هذه التسبيحات في الركعتين الأخيرتين قائمة مقام الحمد؛ والمصلي مختار أن يقرأ الحمد مكانها. ونفيد التوحيد الفعلي، كما ذكرنا في الحمد، من حصر الحمد بالحق تعالى، وتقصر يد العبد عن المحامد بالكلية، ونوصل إلى سامعة القلب: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾[1]، ونذيق ذائقة الروح حقيقة ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[2]؛ ونضع رؤية النفس، وحبها، تحت قدمي السلوك؛ كي نصل إلى مقام الحمد، ونخلّص القلب من مشقة تحمل ثقل منّة الخلق.

الركن الثالث: التهليل

وله مقامات، منها مقام نفي الألوهية الفعلية، وهو عبارة أخرى عن: لا مؤثر في الوجود إلا الله، وهذا يؤكد حصر التحميد، بل يوجب

(١) الحديد: ٣

(٢) الأنفال: ١٧

الحصر، ويسبب له؛ لأن مراتب الوجود الإمكانية، ظلّ حقيقة وجود الحق، جلت قدرته، وربط محض، وليس لشيء منها بوجه من الاستقلال، والقيام، بنفسه؛ فلهذا لا يصح أن ينسب التأثير الإيجادي إليها بوجه؛ لأن اللازم في التأثير الاستقلال في الإيجاد، والاستقلال في الإيجاد، مستلزم الاستقلال في الوجود، وبعبارة أهل الذوق: حقيقة الوجودات الظلّية ظهور قدرة الحق في المرائي الخلقيّة. ومعنى ﴿لَآ إِلَهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، مشاهدة فاعلية الحق، وقدرته في الخلق، ونفي التعينات الخلقيّة، وإفناء مقام فاعلية الخلق في الحق، وإفناء تأثيرهم فيه تعالى.

ومن مقامات التهليل، نفي المعبود غير الحق؛ و﴿لَآ إِلَهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، أي: لا معبود سوى الله. وبناء على هذا مقام، فالتهليل نتيجة لمقام التحميد، لأنه إذا انحصرت المحمدة في ذات الحق المقدسة، فالعبودية أيضا تنزل حملها في ذلك المقام المقدس وتنتفي جميع عبوديات الخلق للخلق وكلها لرؤية المحمدة ويكون هذا هو المعبود وتنكسر الأصنام بأجمعها.

الركن الرابع: التكبير

التكبير عن التوصيف، فكأن العبد في بدء وروده في التحميد، والتهليل، ينزّه الله عن التوصيف؛ وبعد الفراغ منه ينزهّه، ويكبّره عن التوصيف، حتى يكون تحميده، وتهليله، محفوفا بالاعتراف بالتقصير والتذلل، ولعل التكبير في هذا المقام، هو التكبير عن التحميد، والتهليل؛

لأن فيه شائبة الكثرة. ولعل في التسبيح تنزيها عن التكبير، وفي التكبير تكبيرا عن التنزيه، لتسقط دعاوى العبد بالكلية، ويتمكن في التوحيد الفعلي، ويكون مقام القيام بالحق، ملكة لقلبه، ويخرج عن التلوين، وتحصل له حالة التمكين. والعبد السالك لا بد من أن يحصّل لقلبه في هذه الأذكار الشريفة، وهي روح المعارف، حالة التبتّل، والتضرّع، والانقطاع، والتذلّل؛ ويُعطي لباطن القلب صورة الذكر بكثرة المداومة، ويمكّن في باطن القلب حقيقة الذكر، حتى يكون القلب متلبّسا لباس الذكر؛ وينزع عن نفسه لباسها، وهو لباس البعد؛ فيصير القلب إلهيا، حقانيا؛ وتتحقق فيه حقيقة الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾[1]، وروحها.

ثانيًا: في آداب القنوت

القنوت متقوم برفع اليد حذاء الوجه، وبسط باطن الكفين نحو السماء، والدعاء بالمأثور، أو غير المأثور، ويجوز الدعاء بكل لسان، عربيا كان، أو غير عربي؛ والعربي أحوط، وأفضل؛ وقال الفقهاء: أفضل الأدعية فيه دعاء الفرج، ولم ير الكاتب دليلا فقهيا معتدا به للأفضلية؛ ولكن مضمون الدعاء دالّ على أفضليّته التامة؛ لأنه مشتمل على التهليل،

(١) التوبة: ١١١

والتسبيح، والتحميد، وهي روح التوحيد. وهو مشتمل على الأسماء العظيمة الإلهية، كالله، والحليم، والكريم، والعليّ، والعظيم، والرب، وهو أيضا مشتمل على ذكر الركوع، والسجود، وعلى أسماء الذات، والصفات، والأفعال، وعلى تجليات الحق جل وعلا، وعلى السلام على المرسلين، وإن كان الأحوط تركه، ولكن الأقوى جوازه، وعلى الصلاة على النبي وآله عليهم السلام؛ فهذا الدعاء باختصاره، مشتملا على جميع الوظائف الذكرية للصلاة.

ومن الأدعية الشريفة التي لها فضل عظيم، ويشتمل على آداب مناجاة العبد الحق، وعلى تعداد العطايا الكاملة الإلهية، والذي يناسب حال القنوت، دعاء «يا من أظهر الجميل»[1]؛ وهو من كنوز العرش، وتحفة الحق تعالى لرسول الله، ولكل من فقراته فضائل، وثواب كثير، كما في توحيد الشيخ الصدوق رحمه الله.

وعلى الرغم من أن الصلاة جميعها إظهار للعبودية، وثناء على الله، فإن الحق جل وعلا فتح باب المناجاة، والدعاء، للعبد، ولاسيما في حال القنوت، وهو حال المناجاة، والانقطاع إلى الحق، وشرّفه بهذا التشريف؛ فالأفضل في أدب عبودية العبد السالك، أن يراعي أدب المقام المقدس الربوبي، ويراقب أدعيته، لتكون مشتملة على تسبيح الحق تعالى، وتنزيهه،

(١) اقبال الاعمال: ج١/٢٨٦

وتتضمن ذكر الحق، وتذكّره؛ ويكون ما يسأل الحق تعالى في هذه الحالة الشريفة من سنخ المعارف الإلهية، وطلب فتح باب المناجاة، والأُنس، والخلوة، والانقطاع إليه؛ ويحترز عن سؤال الدنيا، والأمور الخسيسة الحيوانية، والشهوات النفسانية؛ فيصيبه الخجل في محضر الأطهار، ويصير بلا حرمة، ووقار، في محضر الأبرار.

أيها العزيز، إن القنوت هو قطع اليد عن غير الحق، والإقبال التام على عزّ الربوبية، ومدّ يد السؤال خالية الكف إلى الغني المطلق؛ والكلام عن البطن، والفرج، وذكر الدنيا في هذا الحال، حال الانقطاع، كمال النقصان، وتمام الخسران.

أيا روحي، أنت الآن بعدت عن وطنك، وهجرت مجاورة الأحرار، وابتليت بهذه الدار المظلمة، ذات التعب، والمحن الكثيرة، فلا تنسج على نفسك كدود القزّ.

أيا عزيزي، إن الله الرحمن، قد خمّر فطرتك بنور المعرفة، ونار العشق، وأيّدها بأنوار كالأنبياء، وعشاق كالأولياء، فلا تطفئ هذه النار بتراب الدنيا الدنيّة ورمادها، ولا تكدّر ذاك النور، بكدورة التوجّه إلى الدنيا، وظلمتها، وهي دار الغربة؛ فإنك إذا توجّهت إلى الوطن الأصلي، وطلبت الانقطاع إلى الحق من الحق، وعرضت عليه حالة هجرانك، وحرمانك، بقلب موجع، وأظهرت حال مسكنتك، واضطرارك،

ووجعك، فيدركك الإمداد الغيبي، وتُساعَد مساعدة باطنية، وتجبر النقائص؛إذ من عادته الإحسان، ومن شيمته التفضّل؛ وإذا قرأت في القنوت من فقرات المناجاة الشعبانية لإمام المتقين، وأمير المؤمنين، وأولاده المعصومين عليهم السلام، وهو أئمة المعارف، والحقائق، ولاسيما قوله عليه السلام: «**إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك..**» [1] إلى آخره.. ولكن تقرؤه بحال الاضطرار، والتبتّل، والتضرّع، لا بقلب ميّت، كقلب الكاتب، فهو أنسب لهذه الحال.

وبالجملة، مقام القنوت في نظر الكاتب، كمقام السجود، فذاك توجّه، وإقبال على ذلّ العبودية، وتذكّر مقام عزّ الربوبية؛ وهذا إقبال على العز الربوبي، وتذكّر عجز العبودية، وذلّها؛ وهذا بحسب مقام المتوسطين، أمّا بحسب مقام الكمّل، فكما أن السجود مقام فناء العبد، وترك غيره، والغيرية، فالقنوت مقام الانقطاع إلى الحق، وترك الاعتماد على غيره، وهو روح مقام التوكل.

وبالجملة، لما كان القيام مقام التوحيد الأفعالي، وهذا التوحيد يتمكن من الركعة الثانية، ففي القنوت تظهر نتيجته، فيقدم العبد كشكول[2] سؤال الحق، وينقطع عن الخلق، ويفرّ منهم.

---

(١) اقبال الأعمال: ج٣/٢٩٩

(٢) الكشكول: وعاء يجمع فيه المتسول رزقه

ثالثًا: في التعقيب

وهو من المستحبات المؤكدة ويكره تركه أيضا، ويتأكد الاستحباب في الصبح والعصر، والتعقيبات المأثورة كثيرة: منها التكبيرات الثلاثة الاختتامية، والمشايخ العظام، يواظبون، بأن يرفعوا أيديهم في كل تكبيرة منها إلى حذاء الأذن، ويبسطون باطن كفهم حذاء القبلة، كالتكبيرات الافتتاحية، وإثباتها مشكل، وإن أمكن إفادة رفع اليد ثلاث مرات من بعض الروايات، ولعله يكفي رفع اليد والتكبير ثلاثا، وقراءة دعاء «**لا إله إلا الله وحده**... الخ»[1]

وإذا كان رفع اليد مستحبا كما يواظب عليه المشايخ، فهو تمكين للأسرار التي ذكرناها.

ولعله إشارة إلى طرد صلاته، وعباداته، لئلا يتطرق العجب، ورؤية النفس، إلى قلبه. والتكبيرات الثلاثة، لعلها إشارة إلى التكبير عن التوحيدات الثلاثة، التي هي مقومة روح جميع الصلاة؛ فالأدب القلبي لهذه التكبيرات، هو أن يطرد المصلي في كل رفع لليدين توحيدا من التوحيدات الثلاثة، ويكبر، وينزه الحق جل وعلا عن توصيفات نفسه، وتوحيداته؛ ويعرض عجزه، وذلّته، وقصوره.

---

(١) إقبال الأعمال: ج١/١٠٧

وتقصيره في المحضر المقدّس للحق جل وعلا، وقد ذكرنا في رسالة (سرّ الصلاة) الأسرار الروحية لهذه التكبيرات؛ وذكرنا رفع اليد على نحو لطيف في تلك الرسالة، وهو من ألطاف الحق تعالى لهذا المسكين، وله الشكر، والحمد.

ومن جملة التعقيبات الشريفة، تسبيحات الصديقة الطاهرة عليها السلام، التي علّمها رسول الله صلى الله عليه وآله لتلك المعظمة، وهي أفضل التعقيبات؛ وفي الحديث «**لو كان شيء أفضل منه لنحله رسول الله فاطمة عليها السلام**»[1].

وآدابها القلبية هي التي ذكرت في التسبيحات الأربع، والزائد عليها، أن هذه الأذكار وردت بعد الصلاة؛ والتسبيح فيها هو التكبير، والتنزيه عن القيام بحق العبودية، وفي التكبير تنزيه، وتكبير عن اللياقة للعبادة لمحضر قدسه، وتنزيه، وتكبير عن المعرفة، وهي غاية العبادة، فعلى العبد السالك أن يتفكر في تعقيب الصلاة في نقصه، وعبادته، وغفلته في حال الحضور، وهي بنفسها ذنب في مذهب العشق، والمحبة؛ ويتوجه إلى حرمانه من حظوظ الحضور، والمحضر المقدس للحق جل جلاله؛ ويجبره بالمقدار الميسور في التعقيبات، التي هي فتح باب آخر الرحمة من الحق تبارك وتعالى؛ ويوصل هذه الأذكار الشريفة إلى القلب، ويحيي بها قلبه، فلعله تختم خاتمته بالحسن، والسعادة؛ ويوصل حقائق هذه الأمور إلى سر

(١) الكافي: ج٣/٣٤٣، باب: التعقيب بعد الصلاة ، ح١٤

القلب، ويذيق الفؤاد سر هذه اللطائف، ليحيي القلوب بذكر الحق، ويجد القلب الحياة الدائمة بالحق، ولما كان الصبح افتتاح الاشتغال بالكثرات، والورود على الدنيا؛ والإنسان مواجه لمخاطرة الاشتغال بالخلق، والغفلة عن الحق، فينبغي للإنسان السالك اليقظان، أن يتوسّل إلى الحق تعالى في ذلك الوقت الدقيق للورود في هذه الدار المظلمة؛ وينقطع إلى حضرته؛ فإذا رأى نفسه غير وجيه في ذلك المحضر الشريف، فيتوسل بأولياء الأمر، وخفراء الزمان، وشفعاء الإنس، والجان، يعني الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله، والأئمة المعصومين عليهم السلام؛ ويجعل تلك الذوات الشريفة شفيعا وواسطة، ولما كان لكل يوم خفير، ومجير، فيتعلق يوم السبت بالوجود المبارك لرسول الله صلى الله عليه وآله ويوم الأحد لأمير المؤمنين عليه السلام، ويوم الاثنين للإمامين الهمامين السبطين عليهما السلام، ويوم الثلاثاء للحضرات السجاد والباقر والصادق عليهم السلام، ويوم الأربعاء للحضرات الكاظم والرضا والتقيّ والنقيّ عليهم السلام، ويوم الخميس للعسكري عليه السلام، ويوم الجمعة لوليّ الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف، فيناسب أن يتوسل بعد صلاة الصبح للورود في هذا البحر المهلك، الظلماني، والمصيدة المهيبة الشيطانية، بخفراء ذلك اليوم، ويسأل الحق تعالى رفع شر الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، بشفاعتهم، فإنهم مقربون لجناب القدس، والمحارم لخلوة الأنس، ويجعلهم وسائط في الإتمام، وقبول العبادات الناقصة، والمناسك غير اللائقة؛ فالحق، تعالى شأنه، الذي

جعل محمداﷺ، وأهل بيته، وسائط الهداية، وعيّنهم الهداة لنا، ونجّى الأمة ببركاتهم من الضلالة، والجهل، يرمّم بشفاعتهم قصورنا؛ ويتمم نقصنا؛ ويقبل إطاعتنا؛ وعباداتنا، غير اللائقة؛ إنه وليّ الفضل والإنعام.

والتعقيبات المأثورة مذكورة في كتب الأدعية فلينتخب كل ما يناسب حاله، ويتم هذا السفر الشريف بالخير والسعادة.

اختتام ودعاء

إلهنا، أنت الذي ألبستنا، نحن العبيد، الضعفاء، لباس الوجود، بالتفضل، والعناية، ومحض الرحمة، والكرامة، من دون أن تسبقنا خدمة، وطاعة، أو نحتاج إلى عبودية، وعبادة، وشرّفتنا بأنواع النعم الروحانية، والجسمانية، وأصناف الرحمات الباطنية، والظاهرية، من دون أن يتطرق من عدمنا خلل في قدرتك، وقوّتك، أو أن يزيد بوجودنا شيء على عظمتك، وحشمتك، فالآن، وقد فاز منبع رحمانيتك، وتشعشعت عين شمس جمالك الجميل، وأغرقتنا في بحار رحمتك، ونوّرتنا بأنوار الجمال، فأجبر نقائصنا، وخطيئاتنا، وذنوبنا، وتقصيراتنا، بنور التوفيق الباطني، والمساعدة، والهداية السرية، وأخلص قلوبنا التي هي كلها تعلّق من التعلقات الدنيوية، وزيّنها بالتعلق بعز القدس.

إلهنا، إنه لا يحصل من طاعتنا، نحن الأقلّين، بسط في مملكتك؛ ولا يعود إليك نفع من عذاب المذنبين وإيلامهم؛ ولا يحصل من العفو،

والرحمة، للساقطين نقصان في قدرتك، فالعين الثابتة للخاطئين طالبة للرحمة، وفطرة الناقصين طالبة لتماميتهم، فعاملنا باللطف العميم، ولا تنظر إلى سوء استعدادنا.

إلهي، إن كنتُ غير مستأهل لرحمتك، فأنت أهل أن تجود علي بفضل سعتك.. إلهي، قد سترت عليّ ذنوبا في الدنيا، وأنا أحوج إلى سترها عليّ منك في الآخرة.. إلهي، هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمة.

ها هنا أختتم كلامنا بتقدير الله حامدا، شاكرا على نعمائه، مصليّا على محمد وآله الطاهرين في اليوم الثاني من ربيع الثاني عام ألف وثلاثمئة وإحدى وستين ١٣٦١ هـ. ق.

خاتمة المعرِّب

أقول، وقد وفّقني المولى المنعم لتعريب هذا السفر الجليل من اللغة الفارسيّة في بلدة دمشق، وقد تمّت ترجمته في صبيحة يوم الخميس الرابع والعشرين من شوال عام ألف وأربعمئة وثلاث من الهجرة النبوية على هاجرها الصلاة والسلام، والحمد لله أولا وآخرا، وأنا العبد المفتاق إلى رحمة ربه.

السيد أحمد الفهري

المحتويات

المقدّمة ٧

لباب مقدمة المترجم ١١

لباب مقدمة الإمام الخميني ١٥

التمهيد ١٩

في آداب العبادات عامة، وقراءة القرآن خاصة ١٩

أ) في آداب العبادات عامة ١٩

أولا: في التوجّه إلى عزّ الربوبية وذلّ العبودية ١٩

ثانيا: في الخشوع ٢٢

ثالثا: في الطمأنينة ٢٥

رابعًا: في الحفاظ على العبادة من تصرف الشيطان ٢٧

خامسًا: في النشاط والبهجة في العبادة ٢٩

سادسًا: في التفهيم ٣٢

سابعًا: في حضور القلب ٣٤

ب) في آداب قراءة القرآن الشريف المطلقة ٤٠
الأدب الأول: التعظيم..... ٤٠
مقاصد القرآن الكريم ومطالبه ومشتملاته ٤٤
طريق الإفادة من القرآن الكريم ٤٨
الأدب الثاني: رفع الموانع والحجب بين المستفيد والقرآن الكريم ٥٠
الأدب الثالث: حضور القلب..... ٥٥
الأدب الرابع ٥٦
الأدب الخامس: التطبيق ٥٨

الفصل الأول

في التطهير والوضوء واللباس والمكان والاستقبال

أولًا: في التطهيرات الثلاثة..... ٦٣
أ) في الآداب القلبية للتوجه إلى الماء للطهارة..... ٦٥
ب) في الطهور وهو إما الماء وهو الأصل في هذا الباب، وإما الأرض ٦٨
ت) في نبذة من آداب الوضوء الباطنية والقلبية..... ٦٩
ث) في الغسل وآدابه القلبية ٧١
ج) في الآداب الباطنية لإزالة النجاسة والتطهير من الخبائث..... ٧٢
ثانيًا: في آداب اللباس..... ٧٦
أ) في آداب مطلق اللباس..... ٧٦

ب) في آداب لباس المصلي ٧٩
ثالثا: في آداب مكان المصلّي وإباحته ٨٥
رابعا: في الآداب القلبية للوقت ٨٩
خامسا: في آداب الاستقبال ٩٣

الفصل الثاني

في آداب الأذان والإقامة

مقدمة ٩٩
أولا: في تكبيرات الأذان والإقامة وأسرارهما ١٠١
ثانيًا: في آداب الشهادة بالألوهية ١٠٣
تنبيه عرفاني ١٠٥
ثالثًا: في آداب الشهادة بالرسالة، والشهادة بالولاية ١٠٧
رابعًا: في آداب الحيّعلات ١١١
خامسًا: في آداب القيام ١١٣
سادسًا: في سر النية وآدابها ١١٦
أ) في حقيقة النية في العبادات ١١٦
ب) في الإخلاص ١١٨
مراتب الإخلاص ١١٨
في درجات الإخلاص ١٢٤

الفصل الثالث

في آداب القراءة في الصلاة

أولا: مرتبتا القراءة ١٢٩
ثانيا: أركان العبودية في القراءة ١٣٠
ثالثا: في آداب الاستعاذة ١٣٤
رابعا: في أركان الاستعاذة ١٤٠
الركن الأول: المستعيذ ١٤٠
الركن الثاني: المستعاذ منه ١٤١
الركن الثالث: المستعاذ به ١٤٢
الركن الرابع: المستعاذ له (غاية الاستعاذة) ١٤٤
خامسا: في آداب التسمية ١٤٤
سادسا: في سورة الحمد ١٤٨
أ) في فضل السورة المباركة ١٤٨
ب) في البيان الإجمالي لسورة الحمد المباركة ١٥٠
مناسبة مقام ربوبية العالمين للتحميد ١٥٦
إيقاظ ايماني ١٥٦
قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ١٥٧
قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ١٥٨

إلهام عرشي ١٥٩
تنبيه عرفاني ١٦١
قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ١٦٢
تنبيه إشراقي ١٦٣
تحقيق عرفاني ١٦٣
تنبيه ونكتة ١٦٥
إيقاظ إيماني ١٦٦
قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الى آخر السورة ١٦٧
تنبيه إشراقي وإشراق عرفاني ١٦٨
تنبيه إيماني ١٦٩
كلام للشيخ البهائي ١٧١
خاتمة ١٧٤

الفصل الرابع

في تفسير سورة التوحيد والقدر المباركتين

فضل سورة التوحيد المباركة ١٧٩
في تفسير سورة التوحيد المباركة ١٨١
تنبيه حكمي ١٨٤
تنبيه عرفاني ١٨٥

تفسير حكمي ١٨٧
حكمة مشرقية ١٨٩
تتميم ١٨٩
في تفسير سورة القدر المباركة ١٩١
في كيفية نزول القرآن الكريم ١٩٣
في بيان ليلة القدر ١٩٦
أ) في وجه تسمية ليلة القدر ١٩٦
ب) في حقيقة ليلة القدر ١٩٧
ت) مظاهر ليلة القدر ١٩٩
تنبيه عرفاني ٢٠٠
في فضل ليلة القدر ٢٠١
قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ﴾ ٢٠٢
قوله تعالى: ﴿ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ﴾ ٢٠٣
قوله تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ﴾ ٢٠٤
الأمر الأول: حقيقة الملائكة وصنوفهم ٢٠٤
الأمر الثاني: في كيفية نزول الملائكة على ولي الأمر ٢٠٧
الأمر الثالث: ٢٠٨
قوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴾ ٢٠٩

تنبيه عرفاني..... ٢٠٩
خاتمة ٢١٠
اعتذار ٢١١

الفصل الخامس

في آداب الركوع والسجود والتشهد والتسليم

أولا: في الركوع ٢١٥
أ) في التكبير قبل الركوع ٢١٥
ب) في آداب الانحناء الركوعي ٢١٦
ت) تعظيم وتنبيه وتحقيق ٢١٨
ث) في أدب الركوع ٢١٩
ج) في رفع الرأس من الركوع ٢٢١
ثانيًا: في السجود ٢٢٢
أ) في سرّه الإجمالي..... ٢٢٢
ب) آداب السجود عند الصادق عليه السلام ٢٢٣
ت) في ذكر السجود ٢٢٤
تنبيه عرفاني..... ٢٢٦
ث) في أسرار السجدة وذكرها ورفع الرأس منها ٢٢٧
ثالثا: في التشهُّـد..... ٢٢٨

أ) في آداب التشهُّـد ٢٢٨
ب) آداب التَشهُّـد عند الصادق عليه السلام ٢٢٩
رابعًا: في التسليم ٢٣٠

خاتمة الكتاب

في آداب بعض الأمور الداخلة والخارجة للصلاة

أولًا: في التسبيحات الأربع ٢٣٧
الركن الأول: التسبيح ٢٣٧
الركن الثاني: التحميد ٢٣٨
الركن الثالث: التهليل ٢٣٨
الركن الرابع: التكبير ٢٣٩
ثانيًا: في آداب القنوت ٢٤٠
ثالثًا: في التعقيب ٢٤٤
اختتام ودعاء ٢٤٧
خاتمة المعرِّب ٢٤٨
المحتويات ٢٤٩